روايات احلام

أهديتك عمري

أهديتك عمري

القدر يضع أمامنا ما لم نحسب حسابه. نسير حياتنا لكنه دائمًا يعترضها بما لا نريده.

نيل برمج حياته حتى تكون خالية من النساء، لكن القدر وضع تحت وصايته طفلة، اكتشف فيما بعد أنها صبية جميلة بعيدة عن الطفولة.

سافرت جنيفر معه إلى مزرعته النائية حيث تعرّف قلبها إلى مشاعر جديدة حوّلت لياليها إلى سهاد، وأدركت أنها وقعت في الحب.

لكن نيل وقد بدأت رياح عواطفها تتسلل إلى حصونه المنيعة قرر أن يبعدها إلى المدينة ليعيد الأمان إلى قلبه وحياته. فهل يستطيع هذا؟

١ ـ ممنوع اللمس

اتّجه نبل نحو نافذة غرفته في الفندق، ليطلّ على الشارع المزدحم دون حماس. إنه لم يحب لندن عندما كان تلميذاً فيها وحبه بات أقلّ في الوقت الحالي.

الشارع ذو الاتجاه الواحد، ضجيج حركة السير، رائحة الديزل، مجتمعة جعلته يحن أكثر فأكثر للمساحات الواسعة في مزرعته.

من الغريب وهو من ولد وترعرع في انكلترا في رعاية مجلس وصاية، أن يشعر بالراحة في أميركا الجنوبية حيث منزله... لقد ترك أرض أجداده، التي لم تكن تهمه بشيء، بعد أن حصل على شهادة الهندسة، وهاجر ليسعى وراء المغامرة.

لكن بناء الجسور ومد أنابيب النفط بدأت تفقد بريقها... ولأنه وجد أن هناك مالاً وفيراً أمامه انضم إلى مرتزقة حربية في أفريقيا الوسطى... لكن المال لم يكن كافياً لتعويضه عن احترام نفسه الذي فقده في مواجهة الأعداء، المسلحين بأسوأ أنواع الأسلحة والذخيرة، مقابل أحدث أنواع الأسلحة وأكثرها فتكاً. فترك عمله ليسافر إلى أميركا ومعه ما يكفي من مال ليدفع ثمن شراء قطعة أرض، ولكنه خسر كل ماله في صفقة

مضاربة، تركته مفلساً...

وهكذا التقى هارفي هانت...

هل مرت خمس عشرة سنة حقاً منذ ذلك الشجار في الحانة؟ لا يستطيع أن يصدق! لقد حدث الكثير خلال تلك السنوات... هانت عالم أثريات، كان في إجازة من عمليات حفر في مكسيكو عندما التقى نيل في أحد الشوارع المليئة بالحانات والفنادق... كان نيل قد بدأ شجاراً مع ساقي الحانة الذي نجح في إخراجه إلى الشارع وضربه ولكن هانت الذي سمع لهجة مواطن انكليزي سارع إلى التدخل. فدفع الفاتورة التي كانت سبب الشجار... وأخذ هانت نيل إلى مكان إقامته... حيث قادهما الحديث إلى أن يعترف لمضيفه بفشله في المضاربة بالأراضي. فكان أن عرض هانت عليه عملاً في مكسيكو، فوافق مع أنه لا يعرف سوى القليل عن علم الآثار...

وعملا معاً ما يقارب السنتين قبل أن يكتشفا أطلال هرم «مايابي» لم يمس منذ مئات السنين. إنه إلى الآن، رغم مرور السنين، يتذكر الإثارة التي أحس بها حينما اكتشف القلائد والخواتم والأساور التي كانت تزين الهيكل العظمي المهترىء في غرفة الدفن، والقناع المصنوع من «الجاد» الذي يخفي محجري العينين والفم الفاغر.

قرر هانت أن يستفيد من حصته بتأسيس مؤسسة للأبحاث في انكلترا. لكن نيل قرر القيام برحلة في أميركا الجنوبية. عاش في البرازيل سنة... ثم اشترى قطعة أرض، منذ اثنتي عشرة سنة، في «سانتا فيتوريا» وهو بلد صغير يقبع بين البرازيل

والأرغواي.

رغم اتفاقه مع هانت على الاتصال الدائم، إلا أن مكان إقامته في «سان غابريل»... لم يعطه الوقت الكافي للكتابة له.

كان عليه تعلم أمور كثيرة عن زراعة الذرة والقنب... وزراعة بساتين أشجار الفاكهة... ليتمكن فيما بعد من جني محصوله الزراعي من البرتقال والليمون، والخوخ والعنب... ولكن كان عليه أكثر تعلم تربية الخيول وتناسلها، وتربية الأبقار التي كانت حبه الحقيقي. ثم... منذ ستة أسابيع... تلقى رسالة...

قطع رنين الهاتف عليه حبل أفكاره، فاجتاز الغرفة ليرفع السماعة.

ـ ستيوارت يتكلم.

أحس بالراحة عندما قال له عامل الهاتف في الفندق:

ـ ثمة فتاة شابة ترغب في رؤيتك سيد ستيوارت... تقول إنك تتوقع وصولها...

فقاطعه:

ـ هذا صحيح... أرسلها إلي فوراً.

ـ حاضر سيدي.

ـ اوه... أتوقع كذلك وصول شخص آخر، صبي... عندما يصل أرسله فوراً.

ـ حاضر سيد ستيوارت.

أعاد نيل السماعة مفكراً، يحرك عضلات كتفيه... مقابلة الوظيف مربية للصبي ليست جزءاً من اهتماماته... ليت هناك رجلين ذكوراً يرغبون في ترك اضواء لندن للعمل في مزرعة نائية

في سيرا غراندي. وليت هذه المرأة غير صغيرة. فكاترينا لن توافق على إدخال امرأة يقل عمرها عن الخامسة والثلاثين إلى منزله.

تقدم نحو المدفأة قلقاً... الرجلان اللذان قابلهما للوظيفة، تقدما إليها معتقدين انه ثري يسكن في مدينة كبيرة مثل بورتونوفا أو فالفيدرا... وعندما علما أن مزرعته تبعد مئتي كيلومتر عن الساحل سرعان ما فقدا الاهتمام بمثل هذا العمل... ترى هل ستشعر امرأة بإحساس مختلف؟ إلا إذا كانت عانساً... ضحك... سنوات من الحياة الصعبة، يناضل لأجل البقاء، علمته أن لا يثق بدوافع أحد. وحده هارفي هانت ساعده... وبموته الآن، صمم نيل أن يفعل ما يستطيع لأجل ابنه... ولكن ليس على حساب حريته... هو يحب النساء، نعم لا ينكر هذا، ولكن الزواج لم يعد له وجود في خططه... وهذا وضع كان يلهب دم كاترينا اللاتيني.

قرع خفيف على الباب، رده إلى واقعه، ليحس بألم خفيف في معدته. فتقدم من الباب وفتحه... ثم تراجع دهشاً عندما رأى فتاة مبتسمة لا يزيد عمرها عن الستة عشرة سنة، تخطو إلى الداخل، ثم تمد رأسها إليه، وتطيح قبلة على كل خد من خديه الأسمرين، بدت طفلة في سروالها الذي ترتديه، وما زاده اقتناعاً بعمرها غصنان شقراوين تتدليان من ثرائها:

ـ نيل؟ أجل هذا أنت. أنت كما وصفك والدي تماماً.

ـ والدك؟

أحس نيل بالارتياك أكثر لأن الفتاة تجاوزته ودخلت الغرفة، تنظر حولها بدهشة... فسألها مذهولاً:

ـ اسمعي... من أنت؟

وحتى وهو يطرح السؤال كان يعرف الرد، فاجتاحته مشاعر الاحباط:

ـ أنت... لا يمكن أن تكوني...

ـ أنا جيف هانت... صحيح. ألم تكن تترقبني؟

فردد بذهول:

ـ جيف هانت؟

ـ في الواقع اسمي جنيفر... ولكن الجميع يناديني باسم جيف.

ـ صحيح؟

أغلق الباب، ولو متردداً ثم أكمل:

ـ ولكن أتعلمين... ظننتك صبياً... ألم تعرفي بهذا؟

ـ صحيح؟ أنا آسفة... لم أظن أنّ هذا يشكّل فارقاً كبيراً.

ابتعد عن الباب مرتبكاً... متزعجاً من سوء الفهم... فالرسالة التي تلقاها من محامي هانت لم تكن واضحة... لا بد أنهم ظنوا أنه يعرف عمر وجنس الطفل. طفل؟ حتى في هذه الفترة القصيرة من معرفتها لاحظ نيل أن جنيفر هانت ليست طفلة. كم عمرها يا ترى؟ هارفي لم يذكر شيئاً عن زواجه خلال مدة تعارفهما: فهل تزوج بعد عودته إلى انكلترا. ولكن هذا يعني أن الفتاة لا تتجاوز الثانية عشرة، في حين أن هذه تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها... نعم إن ذلك يعني فترة وصاية أقل... ولكنها فترة أكثر تعقيداً!

ـ هل تعيش هنا؟

اضطر نيل للتركيز على سؤال الفتاة... فرد عليها:

ـ لا طبعاً... أنت تعلمين أنني أقيم في سانتا فيتوريا.

ـ أعني وأنت في انكلترا. لم أقم من قبل في فندق. والراهبات لم يكن يوافقن على مثل هذه الإقامة. بعض الفتيات كن يقضين إجازتهن مع أهلهن، في جزر الانتيل شتاءً، أو على شواطىء المتوسط صيفاً ولكنني لم أزر قط مثل هذه الأماكن، فأبي كان دائم الانشغال بحفريات في مكان ما من العالم.

ـ انتظري لحظة... ألا تظنين أن من واجبك تفسير سبب تركي جاهلاً بحقيقة جنسك... وماذا تتوقعين أن أفعل بهذا الواقع بحق الله؟

فعبست:

ـ ماذا أتوقع أن تفعل؟ ماذا تعني؟ أنت وصيّ؟ مهما كان جنسي!

أطلق نيل أنفاسه متنهداً:

ـ لا أصدق أنك الآنسة هانت، الساذجة... أنت تعرفين تماماً أنني كنت أتوقع صبياً!

ـ هذا ما تقوله أنت... ولكنني لست أدري ما استطيع فعله لك.

ضحكت... فكانت هذه القشة الأخيرة... فصاح بها بغيظ:

ـ إذن سأقول لك. كان والدك صديقاً مخلصاً. وعندما سمعت أنه مات وترك... طفلاً... تحت وصايتي... كنت مستعداً لفعل ما بوسعي لأؤمن للفتى حياة محترمة...

فقاطعته مسرعة تمسك بكم سترته:

ـ أعلم هذا...

فسارع لسحب ذراعه منها وتابع:

ـ تلك الرسالة ذكرت اسم جيف هانت... فاعتقدتك فتى في الثانية عشرة من عمره...

ـ حسناً... لا حيلة لي في هذا... لم أطلب أنا أن يعهد بي إليك، ولم اختر الجنس الذي ولدت عليه... لو كنت قادرة على تغييره... صدقني... لأرضيت رغبتك.

ـ ماذا تعنين؟

ـ أقصد أن والدي لم يكن يرغب في ابنة... كرغبتك أنت الآن.

أحس نيل بوخز الضمير لما ظهر من ألم في عينيها:

ـ كان يجب أن أكون صبياً... فلو كنت صبياً لأخذني معه في رحلاته بدل تركي في الدير إلى أن أحسست أنني أكاد أموت ضجراً.

ـ كم عمرك تحديداً؟

ـ سبعة عشرة عاماً!

فحدق إليها وهو لا يصدق.

ـ سبعة عشر؟ ولكن... ولكن...

ـ أبي لم يذكرني قط؟

هزت كتفيها دون مبالاة.. لكنه أحس بأنها تقاوم مشاعرها.

ـ هذا لا يدهشني... فهو أصلاً لم يكن يريد الزواج. وما كان يجب أن يتزوج... عندما ماتت أمي وهي تلدني... حسناً... وضعني في رعاية دير للراهبات.

فهز نيل رأسه:

ـ تتكلمين الانكليزية بطلاقة... مع أن الدير كان في

فرنسا.

ـ أجل... قرب باريس... في الواقع أمي كانت فرنسية... ولكن العديد من الراهبات كن انكليزيات. وقد أصر والدي على أن أتعلّم لغته.

ـ لقد قلت إن والدك ذكرني أمامك؟

ـ أجل! لست أدري إذا كان قد كتب يخبرك عن رحلاته... لكنه في نهاية الأمر... عندما لزم... لزم الفراش... أخذ يتحدث عنك كثيراً.

فسحب نيل نفساً عميقاً وأشار إلى مقعدين متقابلين في الغرفة:

ـ الأفضل أن نجلس... علينا أن نتحدث... ونتفاهم...

فابتسمت الفتاة:

ـ طبعاً...

وجلست، فانفتحت أطراف سترتها لتكشف عن جسد متكامل يضغط على القماش... وهذا دليل إضافي يشير إلى نضوجها. تردد لحظات ثم جلس في مواجهتها مكرهاً.

ـ والآن... أخبريني قليلاً عما حدث لوالدك بعد عودته من المكسيك.

ـ ليس هذا بالسهل... فأنا لم أكن أعرف دوماً أين هو، أو ماذا يفعل. أظنه موّل حفريات في مصر... مع أنني لست واثقة.

ـ وماذا جرى بمؤسسة الأبحاث؟ كان والدك ينوي استخدام ماله لانشاء مؤسسة للأبحاث.

فبدت الحيرة على الفتاة... إذ يبدو أن لا فكرة لها عما

يقول:

ـ آسفة... إذا كنت تظن أن والدي مات رجلاً ثرياً...

ـ لم أقل هذا!

أحس بوخزة من معاني الكلمات... وتابعت:

ـ خسر أمواله كلها في مشروعه الأخير الذي كان عليه تنفيذه في قرية نائية في جبال طوروس التركية... حيث التقط المرض... أصيب بيرد، تبعه التهاب رئوي... كانوا يسكنون في خيم وحتى أوصلوه إلى المستشفى كان مرضه قد تفاقم وأصبح يعاني من ذات الرئة... لكنه استعاد عافيته بالطبع... إلا أنه لم يكن يمتلك القوة الكافية على الاستمرار... فعاد إلى لندن... وعندها أرسل يطلبني.

ـ متى كان هذا؟

ـ منذ ستة أشهر. أظن أن الالتهاب الرئوي أضعف عضلات قلبه. وهذا ما جعله يخشى الموت لذا أراد معرفة ابنته عن كثب...

اختفى صوتها بعد أن دفعته مشاعرها إلى الارتفاع قليلاً، وأكملت بعد صمت قصير:

ـ لم أكن أعلم أنه اتصل بمحاميه... إلا بعد موته... كان يعلم أنني لن أرضى بوصيه... لأنني استطيع العناية بنفسي.

فرد عليها بخشونة:

ـ صحيح؟

ولكنه داخلياً أعجب بروحها المرتفعة... إذ لا يعقل أن يكون وطء تلك الأشهر الستة خفيف الوقع... مهما كانت الزاوية التي ينظر بها إليها.

ضمت كتفيها إلى الأمام ونظرت إليه:

ـ حسناً... هل ستتخلى عني الآن؟

ـ لا! ولكنني سأحتاج إلى بعض الوقت... لأعيد ترتيب خططي.

دفع جسده بيديه ليقف على قدميه، فبدا... طويلاً... أسمر... وخطراً... فوقفت بدورها... وطبعت قبلة على اصابعها لتمررها إلى فمه:

ـ شكراً لك... كان والدي على حق بشأنك. أنت رجل طيب.

ثم قرع الباب... فمنعه هذا من الرد. إنها دون شك المربية التي عليه مقابلتها الآن... على الأقل هذه المقاطعة ستكسبه بعض الوقت لالتقاط أنفاسه... وغضب من نفسه لأنه ترك فتاة صغيرة تفقده السيطرة على مشاعره.

ـ سأواجه بعض الارباك. أظنها المرأة التي أنوي مقابلتها لوظيفة... مربية.

ـ مربية؟... لي أنا؟

فانفجرت بالضحك... وتراقصت عيناها:

ـ اوه نيل! هل ظننتني حقاً بحاجة إلى مربية؟

ـ قد تدهشين. ولكن بما أن والدك لم يذكرك يوماً أمامي فقد اعتقدت أنه تزوج بعد عودته من المكسيك... لذلك من الطبيعي أن أظنك طفلة أصغر مما أنت عليه.

ـ لست طفلة!

لكنه كان قد تركها ليفتح الباب... فإذا المرأة الواقفة بالباب تجاوزت منتصف العمر، عمرها يتراوح بين الخامسة

والأربعين والخمسين... ثيابها ومظهرها يليقان بمهنتها... لو أنها فقط وصلت قبل الآن... لربما تمكن من التعامل بفعالية أكبر مع وصيته.

ـ سيد ستيوارت. (سألت المرأة بأدب).

فأحنى نيل رأسه ومد يده يصافحها مشيراً إليها بالدخول.

ـ هل أنت الآنسة نيوبولت؟

ـ آسفة على تأخري.

أقفلت الباب وراءها، ثم امتد بصرها إلى جنيفر الواقفة خلفه.

ـ أنا... لم أجد تاكسياً بسهولة... ثم الزحام...

ـ لا بأس آنسة نيوبولت... ولكن تأخرك أحدث ما قد غيّر الوضع جذرياً.

امتد بصرها مرة أخرى إلى جنيفر... ومرت على وجهها نظرة قلقة. اعتقد نيل أن الوظيفة كانت تعني الكثير لهذه المرأة... فقد لاحظ قدم معطفها الكحلي والرتق الدقيق المرتب في قفازها الصوفي.

قدم لها كرسياً... ثم قال:

ـ أخشى أن الوظيفة... لم تعد موجودة... فالصبي انقلب إلى فتاة... وهي... كما ترين كبيرة لن تحتاج إلى مربية.

تفاسيم الآنسة نيوبولت القلقة أظهرت خيبة أملها. فقالت:

ـ أجل... أرى هذا.

ـ أنا آسف...

فوقفت المرأة، وواجهته بثقة زائدة بالنفس.

ـ سأذهب الآن سيد ستيوارت... شكراً على مقابلتك... أنا آسفة لأن الأمور لم تسر كما توقعت... أقصد... أنني لا أعني...

ـ لا بأس آنسة نيوبولت. أعرف تماماً ما تعنين...

ابتسم لها كي يمحو ارتباكها... فهزت المرأة رأسها وابتسمت لجنيفر، واستدارت نحو الباب... فقال لها نيل وهو يفتحه لها:

ـ حظاً طيباً.

فكانت ابتسامتها أبلغ من أية كلمات.

أقفل الباب واستند إليه... ماذا الآن؟ ماذا سيفعل بهذه الفتاة؟ إن الشيء الوحيد المؤكد... هو عدم استطاعته اصطحابها معه إلى سان غابريال... فباستثناء كاترينا يعتبر منزله الخالي من النساء غير مؤهل لوجود مراهقة مثيرة، تنتظر أن تجرب مخالبها... ثم... ليس هناك شيء يناسب فتاة في مزرعة. إنّ حياته بعيدة عن الترف... وبعيدة عن أي تجمع اجتماعي... ومع صبي... سيكون الأمر مختلفاً. كان سيجول به في المزرعة، يعلمه الركوب، وربط المجول... وترويض الخيول... والنوم في العراء تحت النجوم عندما يبدأ موسم الجمع السنوي... كان سيعامله كابنه... الابن الذي من غير المحتمل أن ينجبه حالياً. ولكن... فتاة... بحق الله... ماذا يمكن أن يفعل بها؟

كأنما أحست بما يشعر به... فتركت جنيفر مكانها قرب المدفأة وتقدمت منه... فأجفل عندما وقفت أمامه... وسألته:

ـ ما الأمر؟ فيمَ تفكر؟ أتريد تغيير رأيك بشأني؟

فتغلب:

ـ أغير رأيي؟ لست أدري ما تعنين.

ـ بل أعتقد أنك تدري. أنت تتمنى لو أنني صبي. أنت مثل والدي تماماً. ماذا دهاكما؟ ما الخطأ في أن أكون فتاة؟ أليس للفتيات فائدة كذلك؟

ابتعد نيل عن الباب بسرعة وقال:

ـ حسناً... لا أنكر هذا. كنت أفكر في هذه الأمور... ولكن كونك فتاة يعقد كل الأمور.

ـ ولماذا؟

ـ لماذا؟... اوه هيا آنسة هانت... لا أظنك بهذه السذاجة.

ـ أرجوك دعك من مناداتي بالآنسة هانت! اسمي جيف... جنيفر. أحببت اسمي أم لم تحبه. أنت تفضل الجنس الذكري.

ـ كنت أفكر لو كنتِ صبياً... لرافقتني إلى سانتا فيوريا... لتقيمي معي في سان غبريال.

ـ سان غبريال... وما هذا... منزلك؟

ـ بل مزرعتي.

ـ هذا رائع! اوه... أجل نيل... سأحب جداً الذهاب معك.

ـ رويدك لحظة... قلت لو كنت صبياً...

ـ وما الفرق ما دمت أريد الذهاب؟

فرفع نيل عينيه إلى السماء مظهراً سخطه:

ـ ما دمت تريدين الذهاب؟ يا عزيزتي الآنسة... جنيفر! تعرفين تماماً أنني لا أستطيع اصطحابك إلى المزرعة.

ـ وهل ستعترض زوجتك؟

- لست متزوجاً.

فركت أنفها بيدها مفكرة:

- آه... لا... لن تفعل هذا!

فقال بغضب:

- وماذا تقصدين بهذا الكلام؟

- لا شيء... فقط أنك ممن يكره النساء... ألست كذلك؟

- لا... تباً لك! أنا لست كذلك لأنني أتمتع بصحبة النساء كأي رجل آخر. لكنني لا أنوي اصطحاب تلميذة معي إلى مزرعة لا يرى فيها الرجال امرأة بيضاء من سنة إلى أخرى!

أفلتت ضحكة عميقة من جيف... وهي تقول ساخرة:

- قرر ما تريد... إما أن أكون تلميذة أو امرأة... أيهما؟

- أنت تفهمين ما أعني. والآن فلنبحث عما تريدين القيام به في حياتك.

- أريد البقاء معك... إما هنا أو في سان غبريال... همم... إنه اسم جميل... هل المزرعة جميلة كاسمها؟

- جنيفر!

تحذيره مضى دون أن تهتم به:

- هكذا أفضل... أحب الطريقة التي تلفظ بها اسمي...

التفت نيل يائساً نحو النافذة... لا طائل من كل هذا... يا إلهي... لماذا فعل هارفي بي هذا؟ كان يعرف دون شك التعقيدات التي سيسببها كل هذا له... فماذا كان قصده؟ ماذا توقع أن يفعل نيل بها؟ ألم يهتم بكل الأخطار التي قد تحيط بفتاة تعيش وسط رجال هم في شوق إلى صحبة امرأة؟ ثم ماذا

يعرف هارفي عنه ليثق به ويضع ابنته تحت وصايته؟

- نيل...

صوت جنيفر جعله يعرف أنها تحركت لتنضم إليه عند النافذة:

- نيل... أرجوك... ألا يمكن أن تتفاهم؟ أعلم أنك صدمت لدى رؤيتي... وأعترف أنني تركتك جاهلاً متعمدة... ولكن هذا لأنني... كنت خائفة... من عدم مجيئك.

- أي نوع من الخنازير تعتقدينني؟ يا إلهي... لقد تركك والدك تحت وصايتي حتى الثامنة عشرة على الأقل، مهما كانت دوافعه، لن أتخلى عن مسؤولياتي.

- آه... مسؤولياتك. لا أريد أن أكون مسؤولية أحد! أنا إنسانة كائنة حية لها حقوقها. ولا أريد أن أكون عبئاً على أحد... لا أريد أن أكون جزءاً من حياتك... أو جزءاً من حياة أي كان...

فصرّ نيل على أسنانه:

- حاولي أن تفهمي! أرجوك!

- وماذا أفهم؟ هل أنت خائف مني سيد ستيوارت؟ أتخشى أن أغريك؟

- لا تكوني سخيفة هكذا! أحاول أن أشرح لك أن حياتي ليست خيالية كما ترينها على شاشة السينما... بل فيها رجال شرسون، يعتبرون أية امرأة غير مرتبطة لعبة... هل أوضحت قصدي؟

- كل الإيضاح... ولكن كوني وصيتك... يعطيني دون شك بعض الاحترام.

- ربما... ولكنني لا أشعر برغبة في تمثيل دور حاضنة

أطفال.

- وهل هذه هي الحقيقة؟ اوه... أنت كوالدي تماماً!

أدارت له ظهرها تبحث في حقيبتها عن منديل لم تجده... راقبها نيل يائساً، مرتبكاً عدة دقائق، ثم قدم لها منديله.

بدلاً من أن تشكره كما توقع، انتزعت المنديل من يده، ورمته إلى الأرض، ندوسه متعمدة بقدمها. ثم رفسته بعيداً... ومسحت أنفها بظاهر يدها. فصاح:

- أيتها...

- هيا! قلها! اشتمني! هذا أفضل من أن تنكر وجودي!

فانحنى ليستعيد المنديل، تفحصه للحظات، ثم طواه ليعيده إلى جيب سترته. في هذا الحين أخذت جنيفر تنشق دموعها ورأسها منحني... لكنه لم يحاول مؤاساتها... بل أخرج علبة سيكار رفيع طويل ووضع أحدها في فمه وأشعله.

كانت رائحة التبغ لطيفة... مهدئة... كان يريد أن يحافظ على هدوئه... لكن... بطريقة ما يجب أن يجعلها ترى المنطق. ثم عنّت له فكرة... هذه الفتاة بحاجة لمن يرعاها، امرأة. فجأة برز أمامه اسم الآنسة نيوبولت... يمكن اقناعها بقبول وظيفة مديرة منزل تقوم بعمل المربية. يمكنه أن يستأجر منزلاً لهما في لندن. وستتمكن جنيفر عندئذ من اختيار الدرس أو العمل... وهو سيسمح لها بزيارته في سانتا فيتوريا في بعض المناسبات.

قال لها بصوت هادىء:

- جنيفر...

التفتت مستجيبة للهجته اللطيفة:

- نعم؟

- لقد توصلت إلى قرار... ساستأجر منزلاً هنا في لندن... لك... وللآنسة نيوبولت.

- آنسة نيوبولت؟

- صحيح! المرأة التي كانت هنا منذ خمس دقائق... إنها بحاجة للوظيفة. ربما ستكون مستعدة لتلعب دور الحاضنة أثناء غيابي...

- لا!

- ماذا تعنين بـ «لا»؟ هل علي أن أذكرك بأنني حتى بلوغك الثامنة عشرة وصياً عليك... وهذا يعني أن عليك تنفيذ ما أقول.

فاستدارت بحدة تواجهه:

- لن تجبرني... اوه... اعترف! ربما تقدر تلك الآنسة علي جعلي أطيعك أثناء وجودك هنا. ولكن بعد ذهابك أنعتقد حقاً أنها ستقدر على ذلك؟ لن تستطيع حبسي في غرفتي... يجب أن أخرج أحياناً... ومن يقول إنني قد أعود؟

أصبح وجهه قاسياً كالفولاذ بعد أن أنهت كلامها... فقال بقساوة:

- أتهددينني؟

- أنا... لماذا... لا... لست... أهددك. ولكن... اوه نيل... أرجوك! لا تفعل بي هذا... دعني أرافقك... سأكون مطيعة. ولن أقترب من أحد من عمالك مهما يكن الأمر... سأنفذ كل ما تقوله... استطيع الطهو... والتنظيف... وترتيب الفراش...

- لا... جنيفر!

- لماذا لا...؟ لماذا؟

بدلاً من الانفجار في وجهه كما توقع، سارعت إلى تقصير المسافة الفاصلة بينهما، حتى اضطر إلى إخراج يديه من جيبيه ليمنعها من الالتصاق به.

- نيل... والدي كان يحترمك... أرادنا أن نكون صديقين... ألن تحاول على الأقل أن تحبني؟

كانت يدا نيل على كتفيها... هشاشة العظام تحت اصابعه جعلته يتردد قبل أن يقول:

- إنها ليست مسألة محبة جنيفر.

- إذاً ماذا؟

واكتشف أن عواطفه ليست محصنة ضد عينيها البريئتين... والتسبب بالألم لها كمن يؤلم غزالاً مجروحاً... ولكن ماذا دهاه...؟

والدها تخلى عنها أعواماً طويلة... فهل سيحذو حذوه؟ ماذا سيحل بها لو إنه تخلى عنها؟ من يعلم ما هي الأخطار التي ستحيط بها في لندن...

- حسناً... حسناً جداً... استسلم... سأصحبك والآنسة نيوبولت إلى سانتا فيتوريا.

- أتعني هذا حقاً؟

تدفقت الدموع من عينيها فحدقت إليه وهي لا تكاد تصدق لكنه أبعدها عنه... لأن هذا لا يعني أن وجودها لن يخلق مشاكل عديدة، لا يدري هو نفسه نوعها.

مسحت دموعها... وقبل أن يعرف ماذا ستفعل ارتمت عليه تمطر وجهه بوابل من القبلات.

- اوه نيل...!

حاول جاهداً إبعادها عنه... خاصة وهو يحس بحرارة جسدها وبرائحة الدفء في ذراعيها الملتفتين حول عنقه. بما أنها ستسافر معه، فيجب أن يكلمها عن طريقتها المتهورة في التعبير عن سرورها... وتساءل كيف تنظر إليه يا ترى... كعم قاس، أم أب لم تعرفه مطلقاً... مهما يكن، عليها أن تتعلم أن الشابات مهما تكون حماستهن لا يرمين أنفسهن بين ذراعي غريب.

- الآنسة نيوبولت... يجب أن توافق... هل فهمت؟ إذا رفضت...

- لن ترفض... لقد أعجبتها. أنا واثقة!

- ولكنها ستتعامل معك... اسمعي! عليك أن لا تكوني مندفعة كثيراً...

- مندفعة؟ أتقصد تجاهك؟

- تجاه أي إنسان.

فابتسمت:

- لماذا؟ ألم يعجبك هذا؟ ألا تريدني أن ألمسك؟

- لا علاقة لإعجابي بالأمر...

فهزت رأسها، وحاولت تحرير يديها من قبضته:

- بل أظن أن لهذا علاقة... في الدير حيث كنت أعيش مع الراهبات... كنا نُمنع من لمس أي شخص... كنا أجزاءاً منفصلة. نتحدث معاً... نبتسم معاً... نصلي معاً... ولكننا لم نتلامس مطلقاً. وأظن أن على الناس أن يلمسوا بعضهم بعضاً... هذا هو معنى الاهتمام... أنا أحب ملامسة الناس... أحب ملامستك.

ـ هذا يكفي!

تركها فجأة، ولكنها لم تعد تجرؤ على لمسه. بعد لحظات استدار واتجه نحو الهاتف... فطلب من عامل السنترال أن يعطيه رقم وكالة التوظيف التي بعثت إليه تلك المرية.

وكانت مكالمة مزدوجة النتيجة... أوصلته بسرعة للاتصال بالآنسة نيوبولت... وأعطته فرصة للتفكير فيما سيجلبه على نفسه من متاعب.

●●●

٢ ـ مشاعر أخرى

لم تكن جنيفر قد عرفت مثل هذا الإحساس بالمساحات والحرية... أميال وأميال من السهول المعشوشبة تمتد على مدى البصر. فدادين شاسعة من الأرض، ترعاها قطعان من الماشية القصيرة القرون، نظرت إليهم وهم يمرون بها... الأبقار في فرنسا وانكلترا ليس لها مثل هذه العيون الصغيرة الكروية... وليس لها هذه الغطرسة البادية في هذه الحيوانات.

منذ شرعت سيارة الرانج القوية تمر أمام الأعمدة الخشبية المتقاطعة التي تحمل الشريط الشائك الذي يحدّ أرض نيل، توقعت جنيفر رؤية منزل المزرعة... ولكن الأميال انطوت ولا شيء أمامها سوى أرض مليئة بعشب بري يغطي سهل سانتا فيتوريا. الطريق من فالفيدرا كانت واسعة أمّا الآن فهي ممر ضيق.

ندمت عندما آلمها ظهرها من جرّاء قفز السيارة على عرضها الجلوس في المقعد الأمامي على الآنسة نيوبولت. كانت الآنسة نيوبولت قد أخذت على عاتقها مسؤولية جنيفر، وكأنها مربية لطفلة. مرّت أوقات عليها جعلتها تشعر بأنها طفلة ترافقها امرأة كاملة... وهذا مجحف في حقّها في السابعة عشرة من عمرها. نعم هي أمضت حياتها في الدير، إلا أنها قرأت الكثير، ومعظم

ما قرأته كتب لو عرفت بها الراهبات لأصبن بالذعر... الشيء الوحيد الذي لم يحرمها منه والدها كان المال. الذي صرفته على العلوم والكتب على اختلاف مشاربها وأنواعها فكل معرفتها عن العلاقة بين الرجل والمرأة اكتسبتها عن طريق الكتب... ولكنها تحس أن بإمكانها النجاح لو واتتها الفرصة. ومواقفة نيل على تصرفات الآنسة نيوبولت معها أزعجتها.

وراء نوافذ الرانج، امتدت الأرض وراحت السيارة تتوجه صعوداً، فأدركت جنيفر دهشة أنهم أصبحوا في منطقة تلال... سلسلة تلال غرانيتية ترمي ظلالها فوق الأرض، حيث بدت قمم حمراء قرمزية، لسلسلة سيراغراندي المسننة الرؤوس والغامضة... وتغير وجه الريف كله... كان الوقت قد تجاوز العصر، وبدأت الظلال تطول، وتظلل أغصان شجر السرو التي لوتها الريح، وكانت شجرات السرو ترمي ظلالاً شبحية فوق الأرض.

كان وصولهم إلى واد تسطع فيه الشمس مفاجأة مذهلة. فمن بعيد بدت ساقية عريضة آتية من فوق منحدر... وهناك رأته تحت أشعة الشمس الذهبية الغاربة يقف على مرتفع صخري. كان حصاناً أسود عظيماً وكأنه صورة عكسية للأرض والسماء الذهبية. شاهدته لحظة هناك... ثم اختفى وراء الصخور... حتى ظنت أنها تخيلت وجوده.

ـ اوه!

الصوت خرج منها كتنهيدة فرد نيل على تنهيدتها بالرضى:

ـ هل رأيته؟

التفتت الآنسة نيوبولت بدهشة:

ـ أرجو عذرك...

ولكن جنيفر مدت يديها إلى ظهر المقعد الأمامي، وقالت بلهفة:

ـ أجل... أجل... لقد رأيته! لمن هو؟ أهو لك؟ أوه نيل إنه رائع الجمال.

نظر إليها نيل ساخراً من فوق كتفه:

ـ أشك في أن يكون هذا المتوحش ملكاً لأحد... ولكن تقنياً أجل... تستطيعين القول إنه يجري فوق أرضي... لذا فهو لي... ولكن ما من أحد مطلقاً نجح في كسر جماحه.

ـ وهل التقطموه إذن؟

ـ أجل ولكنه لعين متكبر... فهويعتبر ركضه في مزرعتي وعبثه مع أفراسي، واجبه الأول!

ضحكة جنيفر المنخفضة كانت مثيرة... وأدركت أن ذراعها العارية ترتاح فوق كتفه العريضة... لكنه تحرك قليلاً ليبعدها وكان من حسن الحظ أن الآنسة نيوبولت اختارت تلك اللحظة لتطرح سؤالاً:

ـ أنت تربي الخيل للتناسل سيد ستيوارت؟

ـ الخيل حبي وهواي. ولكن انتاج اللحم البقري هو اهتمامي الأول.

ـ ولكن هذا الحيوان... الذي رأته جنيفر... مخلوق متوحش.

ـ أظن هذا... ولكنني أحياناً اتساءل عما إذا كان أكثر منا تمدناً فلا شيء يجري في المزرعة يجهله هو. بعض المواطنين من الهنود يؤمنون أن روح اله من آلهتهم تتجسد فيه. إنه مقدس

عندهم، أما عندي فأقلّ قداسة.

فجأة علقت أنفاس جنيفر في حنجرتها وذلك حين وقعت عيناها على مبنى أمامهم... كان يقبع هناك في الوادي... ولكن ترميد سقفه المدهون الممتد فوق شرفة عريضة... أعطاها أول فكرة عن المنزل الذي يعيش فيه نيل...

دون أن تكترث لعدائه... مالت مرة أخرى إلى الأمام وتركت اصابعها تلامس مؤخرة عنقه عند شعره الكثيف الطويل.

تنهدت قائلة:

ـ أهذا بيتك؟

اختلطت أنفاسها بعبير الحشائش البرية المندفعة إليهم عبر النافذة... فارتفعت يد نيل ليعيد ترتيب شعره، ولكنه دفع اصابعها عنه بتصميم وأجاب:

ـ أجل... هذا هو «سان غبريال».

أبدت الآنسة نيوبولت رأيها:

ـ أليس منزلاً كبيراً سيد ستيوارت؟

أعلمها نيل أن الامتداد البنائي للمنزل ما هو إلا سكن «الغاوتشوز» الذين يعملون لديه... وأشار لها إلى منزل الطباخ، ومنامة العمال ثم أردف:

ـ لدي عشرون عاملاً دائمون. وقد يعمل ضعف هذا العدد عندما تدعو الحاجة. ثم هناك انريكو بيغليو رئيس عمالي وباتريك ايفانوس الذي يسكن وحده في منزل يقع عند الطرف الآخر للوادي، وهو أفضل راعي بقر في هذا الجزء من جبال «الأند».

واتسعت الطريق بعد وصولهم إلى السفوح المنخفضة

المليئة بالعشب... وبرز أمامهم النهر النامي عند ضفتيه القصب الذهبي والأزهار الصفراء الغريبة. كان هناك أبقار ترعى قرب النهر... لا تشبه الأبقار الوحشية العيون التي شاهدتها جنيفر خلال الرحلة... بل كانت مخلوقات سمينة هادئة لا تهتم إلا بقضم الحشيش... عند اقترابهم من المنزل، شاهدت جنيفر الحظائر التي يحتفظون فيها بالأفراس والمهرات الصغيرة... ثم فيما بعد شاهدت الماعز والدجاج الذي هرب بعيداً عن الطريق.

لم تستطع كبح بهجتها فقفزت من جديد إلى الأمام... بينما كان يفتح باب السيارة من جهته أطلت امرأة من داخل المبنى. امرأة بدت لجنيفر شابة صغيرة، طويلة، ذات شعر أسود كشعر نيل تماماً... طويل مستقيم ناعم يغطي كتفيها... قسماتها تنم عن قسمات «مادونا»... هادئة وفورة... لكن عند خروج جنيفر من السيارة، أحست بموجة من العداء تطل من عينيها.

حياها نيل ببرود قبل أن يساعد الراكبة الأخرى على النزول ثم قال:

ـ هذه مديرة منزلي آنسة نيوبولت، إنها السنيورا باترفاه... كاترينا، هذه وصيتي... ووصيفتها.

ـ مرحباً.

تقدمت جنيفر إلى الأمام تمد يدها، مصممة على أن لا ترهبها هذه الأنثى الدكناء العينين. حينما اقتربت لاحظت أنها شابة.

أمسكت يد جنيفر قبل أن تقول بلهجة تنم عمّا لا تشعر به:

ـ بنفيندا سنيوريتا! (أهلاً وسهلاً).

فقال نيل محذراً:

ـ بالانكليزية كاترينا.

فسارعت لتحية المرأة المسنة بالانكليزية مظهرة حماساً أكثر نحوها. وأخذ نيل يتسلق درجات السلم العريض:

ـ تفضلا إلى الداخل.

ثبتت جنيفر نظرها إلى عينيه مباشرة... ولكنه رفض الرد على السؤال المطل من عينيها... بل دخل إلى ردهة باردة، أحست جنيفر فيها إحساساً لم تشعر به قط، إحساساً بأنها تعود إلى بيتها. ولم تحس بأن نيل تركها إلا بعد أن انضمت إليها الآنسة نيوبولت والمرأة التي قالت بأدب:

ـ أتحبان رؤية غرفتيكما؟ ساريكما إياها بينما يحضر ريكو بعض الشاي.

طغى جمال غرفتها على انزعاجها... كانت كبيرة، مرتفعة السقف، تطل على الوادي كله، ومع أن أثاثها لم يكن فاخراً إلا أنه بدا جميلاً وجذاباً. غرفة مربيتها كانت قرب غرفتها، لها الأناقة ذاتها والأثاث نفسه وقد ذكرت كاترينا أن هناك حماماً واحداً في المنزل... للأسف. وأكملت:

ـ انهم يستخدمون الحمامات في مهجع العمال.

سألتها جنيفر عما تعني فردت بابتسامة شاحبة:

ـ نيل بالطبع... وانريكو.

لاحظت جنيفر الطريقة العفوية التي تذكر كاترينا فيها اسم مخدومها وسألتها:

ـ انريكو... هذا يعني رئيس العمال عند السيد ستيوارت؟

بدت في عيني كاترينا الوقاحة المهينة:

ـ هذا صحيح... ستقابلينه وقت العشاء... والآن هلا علرتماني... سأرى إن أعد الشاي.

دخلت الآنسة نيوبولت مع جنيفر إلى غرفتها وجلست على السرير، بينما اتجهت الفتاة إلى أبواب الشرفة... تطرح سؤالاً:

ـ أتظنين أنك ستكونين سعيدة في هذا المكان؟

فاستدارت جنيفر نحوها:

ـ ولماذا هذا السؤال؟

ـ لأنني أحس أنهم لا يرحبون بنا. اوه... لا أعني السيد ستيوارت. إنه ساحر... ولكن السنيورا باترقاه...

ـ تعنين كاترينا... إنها مدبرة المنزل... وهذا كل شيء. لن أدع مدبرة منزل ترعبني!

ـ أتظنينها فقط مدبرة منزل؟ إنها تبدو لي السيدة الآمرة هنا.

ـ حسناً... ربما... ولكنها لن تأمرني آنسة نيوبولت، وهذا هو المهم.

فابتسمت العجوز:

ـ اوه! يا لكبرياء الشباب!

أجفلتا عند سماع صوت رجل يأتيهما من الخلف.

ـ كل شيء على ما يرام؟

فاستدارت جنيفر إلى نيل... متسائلة عما سمعه من حديثهما.

ـ هل يجب أن تتجسس علينا هكذا؟

ـ لم أتجسس على أحد! كنت أود التأكد بنفسي أنكما

حصلتما على كل ما تحتاجان إليه.

ـ حسناً... ليس تماماً لأنه تنقصنا الضيافة... هذا شيء... والآخر... أين اختفيت؟

فاسترخى فم نبل قليلاً:

ـ أنا آسف... ولكن هذا ليس فندقاً لقضاء عطلة... إنها مزرعة عمل. والعديد من الأمور تنتظر انهاءها... يؤسفني أن تشعري بأني أهملتك...

فوقفت الآنسة نيوبولت، ونظرت إلى جنيفر مؤنبة، ثم قالت:

ـ اوه... نحن لم نفكر بمثل هذا... لا بد أننا تعبتان...

صاحت جنيفر بحدة وهي ترفع رأسها تحدياً:

ـ لكنني لست تعبة.

فرد على العجوز ببرود:

ـ أقترح عليك أن تنامي قليلاً آنسة نيوبولت... العشاء لن يُقدم قبل الساعة الثامنة... وهناك وقت كاف للاستحمام إذا أردتما.

ثم لم تلبث أن سمعت جنيفر صوت باب غرفتها يقفل... ودخل نبل ليصبح وراءها تماماً. وجهه متجهم غير راضٍ.

ـ أتظنين أنك قادرة على عدم احراجي أمام الآنسة نيوبولت؟

ـ أجل... إذا استطعت ضمان أن لا تحرجني كاترينا أمامها!

ـ اوه... يا إلهي! ماذا قالت لك؟

ـ قالت...؟ إنها لم تقل شيئاً... إنه... تصرفها.

ـ فهمت... هل هذا كل شيء؟

ـ لا... ليس هذا كل شيء. أحب غرفتي... إنها جميلة، ولكنني لا أريد أن أرتاح. فلست تعبة... أريد رؤية المزرعة... أريد أن أكون معك.

ـ سانتا فيتوريا تحتوي على عشرين ألف فدان... فكم تعتقدين إنك سترين منها قبل حلول الظلام؟ غداً أو بعد غد إذا كنت تجيدين امتطاء الخيل... سأدع انريكو يريك الحقل القريب من المنزل حيث يروض الخيول...

ـ انريكو! لا أعرف انريكو. ولا أريده أن يريني الـ... سانتا فيتوريا... أريدك أنت أن...

ـ جنيفر! كلما أسرعت بمعرفة أن رغباتك لن تكون أوامر... كان هذا أفضل... لقد سمحت بمجيئك بناء على رغبتي... ولكن ما دمت تعيشين تحت سقف بيتي، عليك تعلّم أشياء محددة... وأولها أنني لن استطيع تخصيص كل وقتي لتسليتك!

سادهما الصمت للحظات كان خلالها يحدقان إلى بعضهما بعضاً... ثم تكلمت... لكن بهدوء حتى كاد لا يسمع ما تقوله:

ـ أنت تريدني أن أكره الحياة هنا؟ تريدني أن أجد الحياة رهيبة لأحزم حقائبي عائدة أكراجي! وعندها لن تكون مضطراً لازعاج نفسك بي! أليس كذلك؟

تقدم منها ليمسك بكتفيها، ويهزها حتى أحست بثقل في رأسها.

ـ جنيفر...! توقفي عن هذا! توقفي عن الأسى على نفسك! بالطبع أريدك هنا. وإلا لما سمحت لك بالمجيء!

ـ حقاً؟

رفعت يدها إلى وجهه تلامس وجنته:

ـ نيل... أنت تهتم بي؟

ـ لقد قلت لك هذا...

لما التصقت به... أحست به يتوتر، وبرائحة عرقه الرجولي تمتد إليها ثم شعرت بعضلاته تلامسها... وأحست بشوق غريب لشيء مريك لم تفهمه... فهذا الاتصال لا علاقة له بالعطف والمؤاساة. وعندما رفع يدها ليطبع قبلة على راحتها... سحبتها وضمتها إلى صدرها وكأن ناراً لسعتها... ثم اجتاح جسدها مشاعر لم تكن مستعدة لقبولها أو استيعابها... وإذا يدوار في رأسها، وبضعف ووهن في ركبتيها. وإذا بفمه يلتوي ساخراً فجذبت نفسها بعيداً عنه.

ـ أجل... أنت ما زلت طفلة جنيفر... ألست هكذا؟ فتوقفي عن لعب دور الأنثى الملتهبة... إنه دور لن يرضيك.

فانفجرت في وجهه بسرعة وتشنج تلف ذراعيها حول جسدها.

ـ أعتقد... أنك تظنني خائفة منك!

فهز رأسه وتساءل ببرود:

ـ ألست خائفة؟

مر بها ليترك الغرفة وكأن صبره قد نفذ.

●●●

٣ ـ أرض الغموض

كانت الفرس مخلوقة صغيرة قوية، لها عينان لطيفتان لم ترَ مثلهما في الجياد. لونها لم يكن مميزاً. كان رمادياً تتخلله بقع بيضاء في مؤخرتها. بالمقارنة مع الجواد الذي كان في الدير، كانت هذه أصيلة وأنيقة. أحست جنيفر بالسعادة لأنها أمضت وقتاً طويلاً في الدير مع ذلك الجواد الانكليزي، تعنى به، تنظفه، وتمتطيه دون سرج.

لكن اتريكو لم يكن مقتنعاً بقدرتها على الامتطاء. فجعلها تمتطي الفرس وتدور بها مراراً حول الحظيرة إلى أن اقتنع أنها قادرة على السيطرة.

كان ذلك في الصباح التالي لوصولها عندما استيقظت يرافقها إحساس بالوهن في عزيمتها... وهذا أمر غير عادي لها... إنها عادة نشيطة متفائلة... لكنها في ذلك الوقت استلقت بضع دقائق تراجع أحداث الأمسية السابقة.

التقت بانريكو بيغليو على طاولة العشاء إضافة إلى ريكو وكاترينا، بعد أن تعاونا في تقديم العشاء على الطاولة. أحست جنيفر بالخوف من جسد انريكو الضخم وشعره الأسود المتجعد، النامي حتى خديه ليلتف قرب أنفه مشكلاً شارباً ضخماً... لكن ضحكته القلبية كانت ترن دائماً في الغرفة

العالية السقف... وقد أسعدتها ممازحته المزعجة لكاترينا وجعلتها صديقه إلى الأبد.

أما ريكو فكان مختلفاً... قدمه نيل على أنه شقيق كاترينا... رؤيتهما معاً أوضحت الشبه لجنيفر... فكلاهما أسمر أدكن رغم قسماتهما الاسيانية، لكن كاترينا كانت أجمل، ربما في أواخر العشرينات من عمرها، بينما لم يتجاوز ريكو عمر جنيفر... خلال العشاء لم يتبادلوا حديثاً كثيراً، بل أخذت كاترينا تسأل نيل عن رحلته، بينما كان اتريكو يلقي النكات على حساب مديرة المنزل.

كشف اتريكو النقاب عن معرفته بهارفي هانت أيضاً. وأسعدها أن هذين الرجلين لم ينسيا والدها.

في الصباح استيقظت جنيفر باكراً، فجسدها لم يعتد بعد على تغيير الوقت بين القارتين. بعد تأكدها من استغراق الآنسة نيوبولت بالنوم، نزلت سعياً وراء الفطور.

فلمحت كاترينا تتجه في ممر يقود إلى مؤخرة المنزل. فتبعتها لتشاهد باهتمام أن الممر الذي تعلوه قنطرة يطل على باحة داخلية... كان مقصد كاترينا باباً في مؤخرة الممر ودون تفكير أو تردد لحقت بها جنيفر.

وجدت نفسها داخل مطبخ ضخم قديم الطراز حرارة الموقد شديدة فيه رغم وجود باب عريض يطل على الباحة الداخلية حيث ترتع الدجاجات... وجهت كاترينا نظرة بطرف عينها إلى الفتاة التي لحقت بها قبل أن تتوجه إلى الفرن وتسحب منه صينية مليئة بأرغفة بنية ذهبية، لذيذة الرائحة وضعتها على الطاولة. ثم أغلقت باب الفرن. فقالت جنيفر:

- صباح الخير!

فردت كاترينا عابسة:

- صباح الخير.

حاولت جنيفر أن تكون أكثر تمدناً:

- هل تصنعون خبزكم هنا؟

فنظرت مديرة المنزل إليها بازدراء:

- ليس لدينا محلات هنا سنيوريتا... ولا نستطيع الذهاب إلى... ماذا يقال له... السوبر ماركت... كلما احتجنا إلى رغيف.

- في الدير كنا نصنع خبزنا بنفسنا كذلك.

- الدير؟ وهل كنت راهبة؟

- اوه لا... كنت أعيش فيه... إنه نوع من المدرسة الداخلية... والدي أرسلني إليه عندما كنت صغيرة.

- والدك؟ الرجل الذي جعل نيل مسؤولاً عن ابنه؟

- لا... لا. في الواقع كنت أنا.

- أنت؟

الثوت شفتاها، وتمنت جنيفر لو لم تكن صادقة معها هكذا.

- أجل... أترين! والدي كان دائماً يريد صبياً لذا كان ينادني جيف... وبالطبع استخدمت أنا ذلك الاسم.

- كي تخدعي نيل... كي تأتي إلى هنا. كي تجعلي منه مربية أطفال!

- لا... فأنا لست طفلة!

- لا... أنت لست طفلة... إذن لماذا لا تعتنين بنفسك؟

نظرت جنيفر حولها متنهدة، متمنية أن يدخل عليهما أحد لتغيير الجو المشحون. ثم قالت:

ـ انظري... أليس من الأجدى أن تبحثي تذمراتك مع... مخدومك؟ فأنا جائعة... هل لي أن أتذوق خبزك ذو المنظر اللذيذ؟

زودتها كاترينا بصمت بالخبز والزبدة ومربى الخوخ... ثم القهوة كذلك... عندما أوشكت على الانتهاء من شرب القهوة أطلّ انريكو. وسرعان ما شعرت جنيفر بجو من التنافر بين الاثنين... حيا انريكو مدبرة المنزل بصفعة على مؤخرتها وهي تنحني لتضع الحطب في الموقد. وكانت ردة فعلها شرسة كما كانت عند العشاء في الليلة السابقة.

دون أن يرد، استدار انريكو إلى جنيفر:

ـ كيف حال ضيفتنا اليوم... ألم تنامي جيداً؟ لقد استيقظت باكراً.

ـ هذا لأن الوقت الآن في انكلترا يتجاوز العاشرة... وأعتقد أنكم قد صحوتم باكراً.

ـ هل هذا ما قالته لك؟

أشار باصبعه إلى مدبرة المنزل ثم اتبع هذا بإشارة صرف نظر من يده:

ـ أتظنين أنني سأترك الراحة والدفء في فراشي باكراً لو لم أكن مضطراً؟ أنا ونيل توجهنا إلى فناء الماشية عند الخامسة والنصف... كنا... كيف تقولين... نضع علامات عليها.

ـ تسمونها؟

فضحك انريكو وهز رأسه.

ـ سي... هكذا!

وضع ملقط النار في النار ثم أخرجه يتصاعد منه الدخان... ووضعه على ظهر كاترينا التي قفزت إلى الأمام مجفلة غاضبة... ورفعت جنيفر يدها إلى فمها برعب... ولكن رئيس العمال كان يمزح، وتعالى صوت ضحكته، ثم قال ساخراً:

ـ ما بك كاترينا... هل ظننتني سأضع وسمي عليك... يا حبيبتي؟

ثم التفت إلى جنيفر:

ـ بونيو... سنيوريتا... إذا كنت جاهزة، فالأوامر وضعتني تحت تصرفك.

ـ تحت تصرفي؟

ـ سي... هل تريدين رؤية شيء ما من المزرعة؟ هل تركبين الخيل؟... قال نيل إنني يجب أن أعلمك.

ـ أنت؟

ـ هيا بنا!

فقالت كاترينا:

ـ أجل سنيوريتا... اذهبي معه فلست أطيق رائحة الخنازير هنا.

ورافقتهما ضحكة انريكو حتى الخارج... ما أن أصبحا بعيداً عن السمع حتى قال لها:

ـ لا تلقي بالاً لكاترينا سنيوريتا... أنا وهي عدوان قديمان... زوجها كان أفضل اصدقائي... ولكنها لم تحبني قط... ربما لأنني أعرف أي نوع من النساء هي.

ـ وهل هي متزوجة؟

ـ ليست الآن، فزوجها مات... هي قتلته، ليس فعلياً... بل بسبب طموحها وجشعها إلى المال الذي جعل المسكين الغبي يجهد نفسه حتى الموت ليرضيها.

بعد ذلك تابعا طريقهما إلى الحظيرة حيث قدم لها الفرس التي تمتطيها الآن، طبعاً بعد ساعة من التمرين أي بعد أن اطمأن انريكو لسلامة ركوبها عليها.

ولكنها الآن شعرت بارتخاء في ساقيها... فقال انريكو مازحاً:

ـ ما بالك آنستي... ألا ترغبين في القيام بنزهة؟

فنظرت إليه بامتعاض:

ـ أنت تعلم كم اتألم... لماذا لم تدعني استخدم السرج مثل أي شخص آخر؟

ـ ألا تعلمين أن من الأفضل في بلاد كهذه أن تتعلمي الطريقة الصعبة، وركوب الخيل دون سرج انجاز هام. إنه يعني أنك تسيطرين عليه... انه الاتصال الجسدي... لا؟ والآن لن تنسي ما تعلمته... فأنت بت تعرفين الإحساس بالحيوان... التلامس... لا؟

التلامس... مرة أخرى تلك الكلمة! وابتسم انريكو مشجعاً:

ـ هل سامحتني على هذا الدرس؟

أحست بالندم لغضبها منه:

ـ اوه... أجل... أعتقد أنني سأسامحك... شكراً لك.

ـ شكراً لي؟ على ماذا؟ أعلى ما سببت لك من ألم؟... لا... انظري ألست هذه السيدة العجوز التي ترافقك؟

ـ آنسة نيوبولت؟

التفتت إلى الآنسة نيوبولت فوجدتها تقطع الممر بين الحظائر باتجاههما... فأحنى انريكو رأسه ليهمس لها:

ـ هل ستعلمها الركوب؟ استطيع اعارتها سروالاً وقميصاً...؟

فتجاهلته لتسير نحو الآنسة نيوبولت متألمة. ولم يفت هذا السيدة... فنظرت إليها أولاً... ثم إلى العملاق الضاحك ورائها:

ـ جنيفر!

ـ مرحباً آنسة نيوبولت. آسفة إذا كنت قد أقلقتك... ولكن كما ترين...

ـ ماذا فعلت بنفسك؟

نظرت إلى انريكو، وبكل وقار الرجولة فيه انحنى لها محياً. وخطا إلى الأمام قائلاً:

ـ كنت أعطي صديقتك الشابة درساً في ركوب الخيل سنيورا... وللأسف... كيف أقول؟... بالغت...

ـ بالغت...؟ بالغت في ماذا؟

فتنهدت جنيفر وأخبرتها أن ظهرها يؤلمها من التمرين... فصاحت الآنسة نيوبولت:

ـ وفي هذا الحر؟ أتريدين أن تمرضي حال وصولك إلى هنا؟

ما أن قالت هذا حتى أحست جنيفر فعلاً بالحرارة... مست جبينها المبتل عرقاً، فعلمت أن وجهها أيضاً يرشح عرقاً.

تابعت الآنسة نيوبولت:

ـ ألا تدركين أنك قد تكونين شديدة الحساسية في ظفس جديد عليك؟

ولكن جنيفر تجاوزت احتجاجاتها وقالت:

ـ هل قابلت انريكو؟

وتم التعارف، وهذا ما أوقف تماماً أي اعتراض من جهة الآنسة... ولكن انريكو تابع مرحه وأصر على تقديمها للفرس ولأن الفرس لطيفة هادئة سرت بها الآنسة نيوبولت كثيراً. ولكن اثناء عودتهما إلى المنزل عادت إلى هجومها:

ـ يجب أن أخبرك أنني دهشت عندما سمعت أن السيد مشوارت اقترح السيور بيغليو مرشداً... لا يبدو على الرجل أثر التمدن. أتظنين هذا؟ له أنف كبير... هل هو هندي؟

ـ الهنود لا يتركون أي شعر على وجوههم عادة.

ذكرها للهنود... أعاد تذكيرها بنيل... فظللت عينيها بيدها تنظر عبر الوادي... ولكنه كان واسعاً وممتداً بحيث لم تتمكن من رؤية أكثر من امتداد طفيف لأرض معشوشبة، وانحناء للنهر الأزرق المائل إلى الرمادي تحت سماء زرقاء مشعة... وشاهدت تصاعد غبار شاحب عن بعد، وهذا قد يعني أي شيء... ولكنها تمكنت من سماع الأصوات المألوفة للبقر من بعيد، وأصوات الدجاج في المنزل.

من هذه الزاوية... يبدو المنزل مختلفاً... المستودعات المسقوفة، كما قال لها انريكو، تحتوي على كل شيء ضروري لمجتمع بحجم هذا المجتمع... إضافة إلى علف الحيوانات، وإلى الات الزراعة أدوات فخارية، وجلود، وطعام مجفف ولحم مقدد للحالات الطارئة. وهناك كذلك محل للحدادة بين

الحظائر وأمكنة مسقوفة لجز صوف الخراف الموجودة الآن في مراعي الجبال... والمنزل بحد ذاته هو الأساس في إدارة المزرعة... أي المحور الذي تدور عليه عجلة مختلف وجوه الحياة في سان غبريال.

تساءلت في نفسها عما إذا كان نيل سيعود وقت الغداء... ولكنها ظهراً خاب أملها. فالوجبة التي قدمت في المطبخ، رغم امتعاض الآنسة نيوبولت، كان يشاركهما فيها كاترينا وريكو.

انريكو اختفى لإكمال عمله... أما جنيفر فلاحظت أن رفيقتها تجد الحياة هنا مختلفة كثيراً عما اعتادت عليه. وفكرت للحظات في ما قد تفعل إن اختارت الآنسة نيوبولت توضيب أغراضها والعودة إلى انكلترا... فمن الممكن أن تجد المرارة، أو العزلة، أو حتى تصرفات كاترينا، أكثر مما تستطيع تحمله... وتقرر أنه مهما كانت ظروفها بائسة، فالحياة في بلدها أفضل حالاً من العيش في هذا الوادي النائي.

مهما كانت حالتها... فهي أولاً... وقبل أي شيء... سيدة مهذبة... والمزاج الجلف الذي يخرج من أمثال انريكو بيغليو... إنما سيزيد من الفوارق.

تنهدت جنيفر، وحاولت التركيز على الطعام أمامها... يجب أن لا تفكر هكذا بتشاؤم... فعلى كل الأحوال... الآنسة نيوبولت أبلغت بظروف الحياة هنا وإن كانت الحياة مختلفة عما تصورتاه فهذا لا يعني أن الحياة لن تكون مقبولة لهما.

• • •

٤ ـ دفء جديد

كأنما تعويضاً لها عن تعب الأمس... استيقظت جنيفر في الصباح التالي ما إن أشعت أنوار الصباح. تشعر بدهشة لأنها لم تجد آثار تعب البارحة في جسدها، فكل ما شعرت به بعض التصلب. وهي الآن على أتم الاستعداد لاعتلاء صهوة الفرس ثانية.

توجهت إلى الحمام... متوقعة أن يكون فارغاً في مثل هذه الساعة، لكنها هناك اصطدمت بنيل لأول مرة منذ ليلتين. كان يغسل رقبته وشعره تحت مياه المغسلة.

ـ اوه... أنا آسفة... أعني... كاترينا قالت إنك عادة تستحم...

التقط نيل منشفة ولفها حول رقبته... كان عارياً حتى الوسط.... ولكن ما لفت نظرها كان خدشاً بليغاً ممتداً على طول ذراعه من المرفق حتى المعصم... ففغرت فاها متأثرة.

عندما رأى ردة فعلها قال:

ـ هذا هو سبب عدم استحمامي هذا الصباح... قررت أن من الأفضل ترك الخدش يشفى أولاً.

ـ ولكن يجب تضميد الجرح!

نسيت في تلك اللحظة أنها ترتدي فقط قميص النوم،

فتقدمت منه وامتدت اصابعها الناعمة تلمس منطقة الجرح، ترتجف تلك الأنامل فوق لحمه الدافىء.

ـ كيف اصبت به؟ إنه جرح عميق!

أبعد نيل اصابعها عنه بحزم، وأكمل تجفيف رقبته:

ـ سيشفى... ثور شرير قرر وضع دمغته عليّ بدل أن أضعها أنا عليه... هذا كل شيء... سأعيش... اؤكد لك هذا.

ـ أليس لديكم هنا أية اسعافات أولية... ضمادات؟

ـ وهل أنت ممرضة؟

ـ لقد عالجت جروحاً عديدة... أتريد أن تصاب بالتهاب قد يؤدي إلى قطع يدك؟

ـ يا إلهي! ألست متشائمة بعض الشيء؟

ـ أرجوك نيل... دعني أضع بعض المرهم المضاد للالتهاب على الجرح وبالطبع لن تعيق الضمادة حركتك.

فانحنى ليلتقط القميص المشبع بالدم الجاف:

ـ سأجعل كاترينا تضمده لي.

فضربت الأرض بقدمها:

ـ ولماذا لا أضمده أنا؟

ـ حسناً... سأضع بعض المرهم على الجرح بنفسي... لدي حقيبة من المراهم في غرفتي، وأظن أن هناك بينها ما هو مضاد للالتهاب.

لم تقل جنيفر شيئاً... بل تحت نفسها جانباً عندما مر بها، لكنها رضعت حقيبة الحمام من يدها ولحقت به.

كان قد فتح درجاً في خزانة قرب النافذة وعلى وشك لف

رباط طويل حول ساعده عندما شاهدها تقف عند باب غرفته أما الكلمات التي كان يتمتم بها لنفسه فلم تكن كلمات مما توافق عليه الراهبات... وسألها:

ـ ماذا تريدين؟

فدخلت الغرفة مشيرة إلى أنها ستقصد الجرح.

ـ وماذا ستقول الآنسة نيوبولت عندما تشاهدك في غرفة نومي وأنت بهذه الثياب؟

أدركت للمرة الأولى ذلك الصباح أنها ما زالت ترتدي غلالة النوم. لكنها صممت أن لا تبدي سذاجتها فقالت:

ـ لكنني متشرة بشكل ملائم... لو كنت أرتدي البيكني...

ـ ولكنك لا ترتدينه... صحيح؟ وهنا ليس الشاطىء... اوه... بحق الله... حسناً... ساعديني... ولكن أسرعي!

أخذت تلف الرباط حول ذراعه... أناملها تلامس بشرته أحياناً فوق صدره، وكان منظر الجرح وقد المرهم بشعاً. وافتنعت بأن تقوم بأفضل ما يمكن لها أن تفعله. وتمتم عندما وصل الرباط إلى مرفقه.

ـ أنت بارعة جداً.

مرقد الرباط ثم عقدته حول المرفق... فأضاف وأنفاسه غير متجانسة:

ـ لم أرك منذ ليلة وصولك... هل استقريت؟

انهمت جنيفر عمامها، لكنها لم تبتعد عنه فوراً بل أجابته بهدوء، تمرر اصابعها على أطراف الرباط:

ـ أظن هذا... هل تشعر بأن الرباط ضيق؟

ـ لا بأس به... لقد سمعت أن اتريكو أعطاك درساً في الركوب بالأمس؟

فابتسمت:

ـ هل قال لك إنني وقعت مرة؟

ـ وقعت؟ وهل أصبت بمكروه؟ لم يقل لي هذا.

فهزت رأسها قائلة:

ـ اوه لم يكن لذلك تأثير... كانت غلطتي لكنه التقطني.

ـ التقطك؟ حسناً انتهى حذار في المرة القادمة.

ـ سأحذر... يسرني اهتمامك بي.

ـ اهتم بك... علي الذهاب الآن... ستكون كاترينا منتظرة لتقديم فطوري.

فتحت جنيفر فمها تعبيراً عن الاستياء:

ـ اوه! لن تعود إلى الحظائر ثانية!

ـ ليس هذا الصباح أريد الذهاب إلى «بورتو توفاه» لشراء بعض التموين للطاهي تشان. لِمَ تسألين؟ أتريدين مرافقتي؟

ـ أيمكن هذا؟

ـ أظن هذا.

حاول أن يمد يده ليتناول قميصه ولكنها منعته بأن لفت ذراعيها حول خصره تحضنه.

ـ شكراً لك...

ثم ضغطت شفتيها على بشرة صدره.

ـ جنيفر!

احتجاجه المتزعج رافقته حركة عنيفة من يديه اللتين أمسكتا ذراعيها ودفعتاها عنه. ولكن الحركة هذه أرسلت ألماً من ذراعه

المصابة إلى كتفه. فصدرت عنه آهة ألم. فتركها فجأة... فشهقت بفزع:

ـ اوه... ذراعك! نيل أنا آسفة...

ـ انسي الأمر.

ـ لا استطيع! هذه غلطتي... كنت مهملة...

ـ قلت ان لا بأس.

لاحظت بعض الدماء تظهر فوق الرباط فقالت تجادله:

ـ لا... ليس الأمر بسيطاً. لقد عاود الجرح نزفه من جديد.

جعل غضبه شرياناً يبرز وينبض بقوة قرب فكه... فظنت جنيفر أن غضبه بسبب نزف الجرح من جديد، لذا أسرعت تفك الضمادة. فأوقفها بذراعه الأخرى ليمسك يديها الاثنتين بيد واحدة، ثم يقول متوتراً:

ـ ماذا تحسبين نفسك فاعلة الآن بحق الجحيم؟

ـ كنت سأعيد تضميد الجرح من جديد.

لكن الكلمات البشعة التي تلفظ بها أوقفتها...

ـ ثم ماذا؟ بعد أن تضمدي الجرح ماذا؟ هل ستقبلينه ليصبح أفضل حالاً؟

ارتجفت جنيفر من النيران المشتعلة في عينيه، فردت مرتجفة:

ـ إذا... إذا رغبت في ذلك.

فأبعد يديها عنه بقوة حتى كادت تقع... وقال خانقاً:

ـ أنت... أنت شريرة! أتعلمين هذا؟... اوه هيا... اخرجي من هنا... سأضمده وحدي.

ـ ولكن نيل...

ـ قلت اخرجي!

فعضت على شفتها:

ـ هل... ستصطحبني معك... إلى «بورتا نوفو»؟

ـ اسمها بورتو نوفا... أجل. أجل سأصطحبك والآنسة نيوبولت. إذا أحببت.

ـ آنسة نيوبولت.

لم تستطع جنيفر اخفاء خيبتها. لكن يد نيل على ظهرها كانت تدفعها نحو الباب:

ـ أجل آنسة نيوبولت... اسألبها! لكن ضعي بعض الملابس على جسدك قبل أن تسألبها...

وعاد بسرعة إلى غرفه.

بورتو نوفا بلدة جبلية صغيرة تقع بين «فالفيدرا» و «موتيسانتو» عاصمة المقاطعة الغربية. ويمكن الوصول إليها من الساحل عبر خط سكة الحديد حيث تبدأ عبره رحلة الأبقار، من سان غبريال.

الآنسة نيوبولت اختارت الانضمام إليهما بكل سرور... جزئيا لم تلمها جنيفر لعدم رغبتها في قضاء يومها مع كاتربنا. أما نيل فلم يظهر اهتماماً بجرحه إلا من وقت إلى آخر، حين يمسكه لهنيهات قليلة... لكن جنيفر كانت قلقة خطر الالتهاب، ورغم ذلك امتنعت عن فرض رأيها عليه بوجود الآنسة نيوبولت.

سأل نيل الآنسة نيوبولت عن رأيها في المزرعة، فقالت إنه لم يكن لديها الوقت الكافي لتكوين رأي بعد... وأضافت:

- آمل أنني وجنيفر سنتجول بحرية أكثر بعد أن تتعلم فن الركوب.

فغر فم الفتاة، ونظر إليها نيل وكأنه لا يصدق:

- أتجيدين الركوب... آنسة نيوبولت؟

- بل أتقنه. عندما كنت مربية لأولاد اللورد غاردنر، كنا نمضي وقتاً طويلاً في أملاكه في اسكتلندا... ومن الطبيعي أن يتعلم الأولاد امتطاء الجياد... وكنت أرافقهم.

فضحك نيل:

- عظيم... هذه موهبة كانت مدفونة. اعتذر آنستي، كان يجب أن أعرف أن أمراً بسيطاً كالسيطرة على جواد ليس أكبر من قدراتك. أسمعت هذا جنيفر؟ سيكون لك ولآنريكو رفيقاً. وإذا كانت الآنسة بصحبتك لن أشعر بعد اليوم بأنني أهملك.

لم ترد جنيفر، ولكن ظهر التحدي في عينيها البنفسجيتين الذهبيتين. في الوقت الباقي راحت تتأمل المناظر حولها بعينين حزينتين.

بورتو نوفا بلدة مكتظة... أثناء اقترابهم منها مروا بمنازل كثيرة، ووجدوا ازدحام السير خانقاً.

كان الوقت يقارب الظهر، فاقترح نيل أن يتناولوا وجبتهم في الفندق قبل أن نشرعا بالتسوق وهو بإتمام بعض الأعمال... جنيفر التي توقعت أن تبقى معه، كبحت احتجاجها عند سماعها هذه المعلومات... وصمتت كغير عادتها وهي تتناول اللحم المشوي، الذي قدم إليهم مع سلطة لذيذة.

أنهت الطعام بتناول الفاكهة بينما راقبت الآنسة نيوبولت تزدرد حلوى محشوة بالسكر والكريم. ثم شربوا «المته» وهي

نوع من الشاي المحلي... ودخّن نيل سيكاراً، ثم اقترح على السيدتين الذهاب للتسوق حتى يكمل عمله. على أن يقابلهما ثانية في المطعم نفسه عند الرابعة.

بعد مغادرته... بقيت جنيفر صامتة... فهي لم تستطع اخفاء انزعاجها لذا نظرت إليها الآنسة نيوبولت ترقب كلاماً منها... لكنها قطبت جبينها.

- إنه يزعجني... لم أكن أعلم أنه سيحضرني إلى هذا المكان ثم يتخلى عني.

- يا طفلتي العزيزة... رجل على عاتقه مسؤوليات السيد ستيوارت، لن يتخلى عن عمله ليبقى معنا. يجب أن نتذكر أننا نحن الغريبتان هنا. ولولا وصية والدك، لما أصبحت تحت رعايته... أظنه يسعى جاهداً لابقائك تحت رعايته إلى أن تبلغي الثامنة عشرة، ولكن يجب أن لا تتوقعي منه الكثير. فلديه حياته الخاصة... ويجب أن تنسجم مع واقع حياته.

مرّ بعد الظهر ببطء فالآنسة نيوبولت شعرت بالملل لأن مجال الشراء محدود في ساحة «افندا» فأعارتا اهتمامهما لاكتشاف الحديقة حول نصب تذكاري لأحد أبطال الحرية المشهورين، ولزيارة الكنيسة.

كان نيل ينتظرهما عندما وصلتا إلى المطعم. وكان قد طلب الشاي... ثم أخذ يصغي باهتمام إلى حديث الآنسة نيوبولت عن كيفية قضائهما بعد الظهر. ولاحظت جنيفر أنه يحرك ذراعه بتصلب أكثر... فلم تستطع منع نفسها عن السؤال عن حالته.

بدت الدهشة على الآنسة نيوبولت للسؤال، فهي لم تكن

تعرف شيئاً عن الإصابة. والنوى فم نيل عند زاويته، وهو يعترف بأنه ذهب إلى الطبيب لتضميد الجرح... فأحست جنيفر بالراحة. ولم تستطع منع ابتسامة خبيثة، وهو يشرح للآنسة ما حصل، فقالت الآنسة وهي تضغط المنديل المزركش إلى فمها:

- يا إلهي! كان يمكن أن تقتل!

- أمر مستحيل!... إنه مجرد خدش. أواجه الخطر من الالتهاب أكثر من الجرح نفسه.

ونظرت إليه جنيفر بعينين متحديتين... إذن لقد قابل طبيباً، كما اقترحت عليه تماماً. وهذا يثبت شيئاً... أليس كذلك؟

"... "العودة إلى المزرعة كانت أقسى فالشمس كانت تغيب والظلال خيم على الطريق، وغيابها بين أغصان الأشجار كان له تأثير ساعة تحديد السرعة عليهم، ثم أن نيل كان يقود بسرعة، لا كما فعل عند مجيئهم، فبذلك لم يتسنَ لها التمتع بمناظر الطريق... الوقت أصبح متأخراً، وهو يريد الوصول قبل حلول الظلام.

وتنفستا الصعداء، هي والآنسة نيويولت، عندما لاحت لهما أنوار المزرعة... فمالت جنيفر إلى الأمام في مقعدها الخلفي خلال الدقائق الأخيرة على وصولهم... فأدهشها الإحساس الذي خامرها فقد شعرت أنها تعود إلى بيتها. عندما استراحت ذراعها بعفوية فوق كتف نيل، لكنه هذه المرة لم ينسحب... وهذا ما جعلها تتمنى لو أن أمامهما أكثر من بضع مئات من الأمتار قبل الوصول إلى المنزل.

● ● ●

٥ ـ أحلام على ضفتيه

أصرت الآنسة نيويولت على ارتداء زي قديم للركوب بدا غير مألوف مع ما يحيط بها. لكن قدرتها على الركوب لا مجال لانكارها. وقد أصبحت معروفة تماماً في المزرعة، فالرجال دعوها «لاميولا» أي العنيدة ودعوا جنيفر بـ «لانينا» أي الطفلة. ولم تكترث لهذه التسمية الطفولية فهي تعرف أنها شكل من أشكال التحبب.

خلال هذه الأيام لم تشاهد جنيفر نيل كثيراً... كان يمضي معظم وقته خارج المنزل... وبعد العشاء، يخلد إلى مكتبته لمتابع العمل الكتابي. كان يعمل جاهداً، كأي عامل آخر لديه وكان يشارك بنفسه بكل صغيرة وكبيرة في إدارة المزرعة. ولأنه مهندس تمكن من استغلال مهارته التقنية. فاريكو أخبرهما أنه مدّد التمديدات الصحية في المنزل بنفسه وحفر آباراً جديدة لتحل محل البرك المحفورة لتجميع المياه للحيوانات وهذا يعني أن فترة جفاف طويلة لم تعد تعني موت الماشية عطشا وهذا يعني ازدياد تناسلها.

خلال إحدى رحلاتهم الصباحية... شاهدت الحصان الأسود ثانية. كانوا في طريقهم إلى الجبل، فوصلوا إلى حيث يرعى قطيع من الجياد. اقترابهم سبب توتراً بين القطيع...

وذهلت جنيفر لمرأى هذا العدد من الجياد. وجعلها ذلك لا ترى الآذان السوداوان ترتفعان بحدة عند اقترابهم. وما أن شاهدته حتى تحرّك رعيل الخيل يتردد صدى وقع حوافرهم الراعد بين جدران الوادي.

تأوه انريكو بحسرة والجياد تختفي عن الأنظار:

- كي ديابلو! إنه شيطان متعجرف، ذلك الحصان له كبرياء إبليس.

سألته جنيفر وهي ما تزال مسحورة بما شاهدت:

- هل هي جياد برية؟

- ليس هناك من جياد برية في «سانتا فيتوريا» كل هذه تنحدر من سلالة جياد اشتراها نيل «الباترون» من الباراغوي... تركت مرة لتجري في الحقول. والقطيع هذا ملك «الباترون» وهو كقطيع الماشية، يتم عده كل سنة، ويباع الزائد منه.

- و... وذلك الحصان؟

فضحك انريكو:

- ذلك اللعين الأسود؟ إنه حيوان متوحش مغرور. يحتفظ بكل الإناث لنفسه.

- قال لي نيل إن الهنود يعتبرونه... مقدساً.

- بعضهم يعتقد والبعض لا... إنهم شعب... كيف نقول؟... مؤمن بالخرافات... ولأن ما من أحد استطاع البقاء فوق ظهره مدة تكفي لكسر جماحه أصبح... «ليجادرايدة»... اسطورة...

- لكنه اسطورة جميلة.

- إلا عندما ترغب في عد الجياد... إنه يعرف كل واد،

كل ممر.

ذلك المساء عند العشاء، تحدثت جنيفر عن الجواد الأسود. فدهشت عندما رفع نيل حاجبيه الأسودين لينظر إلى انريكو بحدة:

- أما وعدتني بألا تصحبهما إلى الجبال؟

ودهشت أكثر عندما نفوه انريكو بلهجة تنم عن اعتذار.

- لم نبتعد كثيراً «باترون» ولم نكن عرضة للخطر.

بدا الذهول على الآنسة نيوبولت وهي تقول:

- خطر؟ نحن... أي أنا وجنيفر... راكبتان كفوءتان، سيد ستيوارت... لذ لا داعي إلى القلق.

فرد نيل بأدب:

- انريكو يعرف أوامري سيدتي. في الوقت الحاضر، الأفضل أن تبقيا حول المنزل.

حينها صدر عن الآنسة نيوبولت صوت ينم عن عدم الموافقة... وحارت جنيفر وأنبّت نفسها لأنها ذكرت ذاك الحصان الأسود ولكنها عكس رفيقتها لم تعلق بشيء.

عندما ترك نيل الطاولة بعد قليل، اعتذرت جنيفر بسرعة ولحقت به. فأدهشتها رؤيتها له يوشك على الخروج من الباب الرئيسي. فقد كانت تظنه سيذهب إلى مكتبه... وترددت قليلاً قبل أن تنطق باسمه. سألها:

- نعم؟

- أنا... إلى أين أنت ذاهب؟

فالتوى فمه:

- أتصدقين؟ أطلب النزهة.

فتقدمت منه:

- هل لي أن أرافقك؟

تنهد نيل:

- ألا تلعبين الشطرنج عادة مع الآنسة نيوبولت في الأمسيات؟

- أجل... أحياناً... ولكن انريكو يلعب معها كذلك. وهو يوفر لها منافسة جيدة.

- حسناً... ولكن ألن تحتاجي إلى معطف؟

- لا أحس بالبرد.

فهز كتفيه وقال:

- كما تشائين.

يا لجسده الرائع التقاسيم... ليتها تفهم سبب تلك الرغبة التي تدفعها إلى لمسه. إنه لم يسألها ذلك بل هو لا يحب أن تلمسه ومع ذلك لم يمنعها هذا من الإحساس بالاغراء.

قطعا الباحة أمام المنزل، ثم انعطفا باتجاه الحظائر... كانت رائحة أزهار العسل، والحطب المقطوع، تملأ أنفيهما... فتمتزج برائحة الحيوانات، ورائحة اللحم المطبوخ... من غرف منامة العمال سمعا من بعزف الغيتار، يرافقه آخر على الهارمونيكا... وتنفخت الريح تطارد الغيوم المحيطة بالقمر المتحدر وتطاير شعر جنيفر خلف أذنيها، عندما التفت إليها نيل قال:

- حسناً؟ أعتقد أنك ترغبين في قول شيء لي. صح؟

كانا وصلا إلى سياج الحظائر، فأسند ظهره إلى عمود ينظر إليها مقطباً.

- أردت معرفة سبب منعك انريكو من اصطحابنا إلى الجبال.

فهز رأسه:

- هذا ما ظننته... ألا يكفي أن تعلمي أنني أفضل أن تبقي في الوادي؟

- هل لهذا علاقة بأنك تحسبنا غير قادرتين على الركوب في تلك الممرات الضيقة؟ أم شيء آخر؟ هل للأمر علاقة بالحصان الأسود؟

- يا للجحيم... لا! كل ما في الأمر أنني لا أعتقد أنها فكرة جيدة... فالجبال غادرة... خاصة عندما يتصاعد الضباب...

- أنا واثقة أن انريكو يعرف متى يكون الطقس خطراً. نيل... لِمَ لا تبوح لي بالحقيقة؟ لست طفلة وإن كنت تحب أن تعاملني كطفلة.

فتنهد:

- ربما أجد هذا أسهل... لم يكن لدي ابنة من قبل... ولست مستعداً بعد للتعامل مع ابنة.

فمطت جنيفر شفتيها:

- أنا لست ابنتك.

ومررت اصابعها على أثر الجرح من تحت قماش كم القميص:

- أرى أنه بدأ يشفى... لست بحاجة إلى ضمادة.

امتدت اصابعه كالعادة ليبعد أصابعها عنه:

- لا! لا تفعلي هذا. ظننتك خرجت معي لتعرفي سبب منعك من الذهاب إلى الجبال...

فردت بصوت ناعم:

- وقلت إنك أخبرتني...

راحت تلف اصابعها على اصابعه بينما هو يحاول التحرر منها...

- همم... يداك فيهما صلابة ونتوءات... أتؤلمك؟

- إنهما يدا رجل... رجل عامل، وليستا يدا رجل عالم كوالدك.

- ولكنك عالم كذلك... قال انريكو إنك مهندس. وقال إنك من مدد أنابيب الماء إلى المنزل بنفسك.

- انريكو يكثر من الكلام.

رفعت يدها لتضمها إلى الأخرى، فغطاهما معاً باصابعه القاسية. ووقف لحظات طويلة ينظر إلى أيديهما المتشابكة، ثم أخذ يمرر اصابعه فوق راحة يديها، وتمتم:

- لن يتهم أحد هاتين اليدين بالخشونة... إنهما ناعمتان، كما يجب ليدي أنثى أن تكونا...

ورفع يديها إلى شفتيه... ثم أردف:

- وحلوتا الرائحة كذلك.

ضج قلبها بقوة في اذنيها، واندفعت الدماء بغزارة في شرايينها... فلمسة شفتيه الساخرتين على بشرتها كانت تلسع مشاعرها بلهيب حار، ووجوده قربها وثرثرها وجعلها تشعر بإثارة محمومة... رغم علمها بأنها تتلاعب بالنار... لم تتراجع كما فعلت في السابق... لا بد أن للإثارة التي يثيرها في داخلها معنى ما. فرغم ذعرها... كانت ملهوفة لتتعلم حقيقة نفسها.

وسمعته يقول:

- ماذا تظنين أنك تفعلين جنيفر؟ تخرجين معي إلى هنا بهذا الثوب الرقيق... في وقت أحس من لمسة يديك أنك ترتجفين؟ لماذا خرجت معي حقاً؟ لماذا الإصرار على الركض خلفي؟ أيطلب الاهتمام! أم لتشجيعي على تقبيل اصابعك وكأنني فارس يرتدي بذلة حديدية... أتظنيني هكذا؟ أنا لست فارسك... جنيفر... أنا... أنا... رجل... إنسان... يملك ضعف الإنسان.

فارتجفت شفتاها:

- أعرف هذا... فلماذا الغضب؟ ألا يحق لي إظهار صداقة نحوك؟ هل أنت متبع ضد العاطفة؟ هل مشاعري تحرجك؟

- مشاعرك؟ أية مشاعر؟ وما هي المشاعر التي يمكن أن أحركها في صدرك؟

- الحب... أنا مغرمة بك!... لقد كنت... لطيفاً معي.

فقال ساخراً:

- صحيح؟

لكنها تجاهلت سخريته:

- أجل... وأنا... ممتنة لك.

- أوه... فهمت... وهذا العرض هو طيبتك في اظهار امتنانك... هناك اسم لما تفعلينه جنيفر، لكنه ليس الحب!

فانتزعت يديها من قبضته، ورفعت رأسها إليه متحدية، تخفي الألم الذي سببه لها دون علم. وصاحت به:

- ألن تفهم؟ طوال حياتي كنت محاطة بأناس لم يحاولوا فهم كنه مشاعري... عندما التقيتك، تصورت كالغبية أنك مختلف... ولكنك لست مختلفاً... أنت بارد دون مشاعر.

أعطته ظهرها ترتجف. فاحتاجت إلى دعم السياج كي تستمد شجاعة لمقاومة الدموع التي هددت بإذلالها... إنه ظالم ومتآمر يريد أن يعقدها ويمزقها، دون صبر أو إحساس وأطبقت يداه على ذراعيها تحت كتفيها تماماً... لمسته كانت ثابتة وقوية. وهو يسألها بصوت منخفض شرس:

- ماذا تعرفين عني؟ ماذا تعرفين عن المشاعر... عن العاطفة؟

وجذبها إليه لتستند إلى جسده المتصلب:

- تتكلمين عن الصداقة والمحبة... ولكن ما تريدينه حقاً هو التجربة! أجل... التجربة!

بينما كانت تقاوم لتتحرّر منه، انزلقت يداه حولها تثبتان ذراعيها إلى جانبيها:

- كنت أعلم أنه ما كان علي اصطحابك إلى هذا المكان... كنت أعلم أنك ناضجة... ولكنك صممت على الحصول على ما تريدين... وكنت واثق أنك ستأمين من حياتنا المحدودة هنا...

- أنا لم أسأم!

صاحت بالكلمات غاضبة ثم رفعت ذراعيها لتجبره على تركها... لكنها نسيت الإصابة الهشة في ذراعه... فلمّا أحست بردة فعله تذكرتها فتلاشى غضبها أمام ألمه. وأغمضت عينيها وأراحت رأسها على صدره. وهي تشعر برغبة غامرة تدفعها إلى البقاء هكذا... ثم نفخت الريح شعرها. الذي ارتفع إلى وجهه ثم أحست بشفتيه تلمسان عنقها.

بدأت حالاً تقاوم لكنه كان أقوى منها، فرغم إصابته تغلب

على جهودها العقيمة بسهولة... أخذت أنفاسها تتسارع... واستيقظت رغبات أخرى... فأدركت غريزياً ماذا تفعل به مقاومتها... فما يحدث هو ضد إرادتها.

لمّا أحس بضعفها، استرخت ذراعاه، وحُبس الهواء في حلقها فقد تحركت يداه إلى الأعلى... وعاد الإحساس بالذعر يتصاعد داخلها. لا يجب أن يلمسها هنا... حتى ولو أن إحساساً خطيراً رحب بتلك اللمسة... وأدارها فجأة لتواجهه.

- لا تكرهيني لهذا جنيفر.

عناقه الصاعق حطم كل خيوط المعارضة في نفسها... ولم تكن قد ذاقت عناق رجل من قبل، فوجدت نفسها تتجاوب بشكل أعمى... دون أن تعي أن محاولتها عدم الظهور بمظهر الساذجة جعل من تجاوبها معه أكثر إثارة. ودون وعي امتدت يداها، تنزلقان فوق القماش الناعم وصولاً إلى عنقه. فيما كانت تطوق عنقه بذراعيها، ترجمت أكمام الفستان إلى الوراء، فلامست بشرتها بشرته في أول عناق حميم لها. وأطبقت أصابعها على عنقه، تجوس خلال شعره الكث الطويل.

لم تعد تهتم بالتوتر الذي أصابه، بل أرادته أن يستمر ويستمر... لتتعلم كيفية خفقان كل ذرة من جسدها.

أخيراً، استجمع قوته، ليبعدها عنه... ولكنها أطلقت أصواتاً صغيرة محتجة، فاضطر إلى هزّها بغضب لتستفيق... وألصقها بالسياج وراءها... ليبقيها متعمداً بعيداً عنه... وبدا في صوته الانفعال:

- حسناً... هل اكتفيت الآن؟

لعقت جنيفر شفتيها الجافتين بلسانها الأكثر جفافاً:

- لماذا... لماذا تسألني؟
- هذا ما أردته لتثبتي أنك أصبحت أنثى مرغوبة... وأنني أنا أيضاً لست متيماً ضدك.

أحست فجأة ببرود الطقس الذي لم تحس به حتى تلك اللحظة:

- كنا... رجلاً وامرأة... ما قمنا به لنونا كان طبيعياً...

فقاطعها بقسوة:

- لا! ما قمنا به لم يكن طبيعياً... فلم نكن رجلاً وامرأة... بل أنا رجل... بينما أنت طفلة مثيرة تتمتعين بالازعاج!

فشهقت:

- لم أكن أزعجك!
- ماذا تسميه إذن؟
- قلت لك... لن تستطيع إنكار أنك... رغبت... في لمسي؟

وجذبت ذراعيها منه... فحدق إليها للحظات ثم مرت على وجهه سخرية:

- اوه... أردت لمسك... أجل... بل أردت أن أفعل أكثر من هذا!

وذابت دفاعاتها أمام القلق البادي على وجهه.

- صحيح؟ صحيح يا نيل؟ قل لي...

وكأنما ندم على ضعفه، فاشتد وجهه قساوة:

- لا!... يا إلهي... مسترغبين في هذا... أليس كذلك؟ رجل في مثل سني... وفتاة يستحوذ عليها الفضول عن الجنس

الآخر!

- هذا غير صحيح! أنت تعلم أن هذا غير صحيح! فلست أهتم بريكو أو انريكو، أو بأي رجل آخر.

فضاقت عيناه:

- ماذا تقترحين إذن... إنك... تهتمين... بي؟

فاحمرت وجنتاها:

- وهل هذا أمر عجيب؟
- يا إلهي!
- لماذا تقول هذا؟ أنت تعرف ما أحس به نحو...

فصاح غاضباً:

- جنيفر... أنا بعمر والدك!
- ولكنك لست والدي! وأنت أصغر منه.
- أنا في الرابعة والثلاثين... صدقي أنني تجاوزت مرحلة من عمري.

فارتجفت شفتاها:

- لا يهمني عمرك.
- ولكنني... أهتم... ومهما كان الوهم الذي تعيشين فيه فيما يتعلق بك وبي... انسيه!

وضع يديه على وجهه بإحباط فجائي:

- جنيفر... دعك من خداع نفسك... ما تبحثين عنه هو التجربة... فقط... التجربة. وصدف أنني موجود لتجربي اختباراتك...
- لا...
- بلى... يا إلهي كان يجب أن أحتفظ بسلامة عقلي... ولكنني على ما أظن أحسست بالغرور لأنك سعيت إلى

صحبتي.

- لا أصدق ما تقول!

- جنيفر أنا لا أتورط مع مراهقات...

- لا أطلب منك التورط!

- وأنا لا أتورط بأية التزامات...

- ولا أتوقع منك هذا!

- إذن ماذا تقولين؟

حاولت جنيفر أن تبقى هادئة:

- أنا... لماذا لا نستطيع الكلام عن هذا؟ أنت رغبت في... عناقي وأنا رغبت فيه... فأين الخطأ؟

تأوه نافد الصبر. ثم أسرها داخل حلقة ذراعيه قائلاً:

- جنيفر! دعك من الادعاء... أنت لست متحذلقة... وأشك في أن يكون أي إنسان قد مسّك من قبل. صحيح؟ ما كان يجب أن أمسك... إذن، لا تستنتجي مما جرى أشياء لا وجود لها.

ارتجفت شفتاها:

- شكراً لك...

- على ماذا؟

- لتوضيحك موقفك.

- ألن تسهلي الأمور علي؟

فأحنت رأسها:

- ولماذا أسهّل عليك أمر تجنبي؟

ودون إرادة منه ترك السياج الذي يمسك به، ليمسك بخصرها وليشدها إليه... هذه المرة لم يكن في عناقه

لطف... ولكن أمله في أن تقاومه خاب... فقد كانت في شوق فامتدت يداها إلى ظهره... بين ذراعيه كانت تتعرف إلى مصيرها، إلى مطالبها، إلى متطلبات جسدها الذي أخبرتها غريزتها فقط أن ما من أحد قد يفي حاجاتها إلاه.

كانت تعلم أنه لن يسامحها على ما تقوم به... لأنها كانت تثيره عمداً، تصفق الأبواب في وجه علاقة حميمة يمكن أن تنشأ بينهما... مع أنها تريده أن يحتضنها، إلا أنها لا تريده أن يفعل هذا ضد إرادته. فطرتها أخبرتها أنها ليست الطريقة الصائبة... ولهذا السبب، انتزعت نفسها منه لتقف مرتجفة مقطوعة النفس أمامه.

شاهدت على وجهه تلك النظرة الساخرة التي أصبحت تعرفها جيداً ولونت السخرية صوته وهو يقول:

- هل انتهت اللعبة؟ هذا ما ظننته... ليس لديك الشجاعة لتكملي المشوار... عند أول بادرة خطر... تهربين!

- هذا ليس السبب بل أن...

صمتت عندما شاهدت الشك البارد في عينيه... ما فائدة الجدال؟ لن يصدقها مطلقاً... ثم لماذا يصدقها؟... فهي نفسها لا تفهم ما يجري.. ونفضت عنها الإحساس بالخيال الذي تحس به وسألته:

- هل... هل ستخبر كاترينا عن... عما جرى؟

فرد عليها وهما يسيران جنباً إلى جنب.

- اوه... طبعاً... ساخبر الجميع... كيف سأقول؟ هل أقول إن أصغر ضيفة في المنزل لديها شكوك بشأن قدرتها؟ وإن وصيتي... لديها فضول مثير بشأن أشياء غير أخلاقية؟

أجل... فهذا سيثير صراخ الاستنكار من أفراد منزلي المتدينين!

فتوقفت جنيفر، تحدق إليه بذعر:

- لن تفعل هذا!

بعد لحظات كاد قلبها يتوقف قال:

- لا... لا... لن أفعل... فأنا نفسي لست فخوراً بما فعلت... فلماذا أذيع هذه الواقعة؟

- نيل...

فصاح بها آمراً:

- ادخلي إلى الداخل!

فهو غير مستعد لمناقشة الأمر أكثر... وبتنهيدة ثقيلة... دخلت أمامه إلى المنزل.

●●●

٦ - سيدة المنزل

استيقظت جنيفر في الصباح التالي تحس بثقل في رأسها وآلام مبرحة في معدتها... وكانت الآنسة نيوبولت قد أتت لتعلم سبب عدم انضمامها إليهم لتناول الفطور، ولكنها سرعان ما اكتشفت أنها الانفلونزا تمنعها، فأصرت على أن يستدعي السيد ستيوارت الطبيب.

فزفرت جنيفر أنفاسها:

- إنه بعض البرد... هذا كل شيء آنسة نيوبولت... جيئيني ببعض الاسبرين وشراب ساخن. وسألازم فراشي اليوم، لبأتي الغد وأنا بألف خير.

ولكن الآنسة لم تتراجع... وعندما عادت بعد خمس عشرة دقيقة، كانت كاترينا برفقتها، على وجهها تعابير يصعب تفسيرها... فكرت جنيفر بمرارة، لو أنها شربت أي شيء بعد عودتها إلى المنزل مع نيل ليلة أمس لما لبثت للشك في أن كاترينا مسؤولة عن حالتها. قالت الآنسة:

- السيد ستيوارت خرج إلى الحظائر... لذلك طلبت من السنيورا باترفاء أن تأتي لتعطينا رأيها.

فابتسمت كاترينا ابتسامة شاحبة:

- قالت الآنسة نيوبولت إنك تشعرين بألم هنا!... فهل

تقيأت؟

- لا!

فأكملت الآنسة نيوبولت:

- يجب أن يراها طبيب... فقد يكون السبب تسمماً من الطعام. وهذا خطر جداً.

فصاحت جنيفر... دون جدوى:

- إنه البرد!

دار تبادل حار للكلمات بين كاترينا والآنسة حول سلامة الطعام وإمكانية التسمم بمأكولات غليظة على الهضم. وكان سيستمر دون نهاية لولا اضطرار جنيفر إلى الذهاب إلى الحمام... وما أن عادت ضعيفة ترتجف من نوبة تقيؤ، كانت الآنسة نيوبولت وحدها فلفتها بالبطانية قائلة:

- قلت للسنيورا باترفلاي إنني أصرّ على احضار الطبيب.

وكانت الفتاة أضعف من أن تجادلها.

اعتلت الآنسة بتصميم صهوة جوادها ثم قصدت الحظائر حيث أبلغت نيل ومع أنها قبلت مرافقة اتريكو لها أثناء طريق العودة، إلا أنها كانت تحس بالانتصار. وهكذا أحضر نيل الطبيب، الذي وصل متأخراً بعد الظهر... ومع أن جنيفر كانت واثقة من نواياه الطيبة، إلا أنها أحست باصابعه المتفحصة جسدها وكأنها وخز الأبر.

بعد أن أرضى نفسه بأن لا أثر لورم أو التهابات، شخّص ما بها على أنه التهاب في المعدة سببه جرثومة... فترك لها دواء للالتهاب، وأصر على أن تلازم الفراش اسبوعاً.

وهكذا قضت جنيفر الأيام القليلة التالية في الفراش.

مع نهاية الأسبوع كانت جنيفر قد غادرت السرير تتجول في المنزل من جديد. إنها شابة، قوية، والجرثومة لم تكن قادرة على ابقائها طريحة الفراش فترة طويلة.

مقابلة نيل عند العشاء في أول أمسية تستطيع فيها النزول إلى غرفة الطعام، هزّت أعصابها. فهي لم تشاهده، أو تتحدث إليه منذ تلك الليلة... كانت قد جلست على مقعدها متوترة. تتمنى لو تقدر على اخفاء مشاعرها أكثر... خاصة أن نيل كان يتصرف بشكل مختلف قليلاً عن عادته، فعدا عن استيضاحه عن صحتها، لم يحاول الكلام معها مباشرة. فأدركت، أن الوضع بينهما لم يتغير.

بسبب الفراغ الكبير في وقتها راحت تكتشف المبنى... وكانت عندما تعلم أن نيل خارج المنزل، تدخل مكتبته الغنية بالكتب على مختلف أنواعها ومشاربها. فكانت تمضي ساعات تقلب المجلدات المليئة بالغبار... وعلمت أن بعضاً منها كتب امتلكها نيل خلال سنوات دراسته... لكن بالإضافة إلى كتب الهندسة الميكانيكية، وتقنية البناء، كان هناك مؤلفات «الديكنز» و «سكوت» إضافة إلى مؤلفات فيتزجيرالد وهمنغواي بل وجدت أيضاً نسخة مترجمة لـ «الأوديسة» فأمضت ساعات بعد الظهر غارقة بين صفحاتها.

لكن الكتاب الذي اثار اهتمامها أكثر كان دروساً مكتوبة لتعلم الإسبانية... فبدأت العمل على تعليم نفسها هذه اللغة. فمعرفتها بالفرنسية ساعدتها على التعرف إلى الكلمات... وميلها الفطري إلى اللكنة جعل أولى محاولاتها لنطق الإسبانية مقبول. وهكذا تشجعت على أن تبقي أذنيها مرهفتين لكل كلمة

تسمعها، فأذهلها تقدمها السريع في تعلم هذه اللغة.

بعد ظهر أحد الأيام سمعتها كاترينا تردد جملة بصوت مرتفع من وراء باب مكتبة نيل فدخلت عليها لا تكاد تستطيع اخفاء غضبها وهي تقول بالإسبانية:

- ماذا تفعلين هنا؟

فأجابتها ببرود وبلغتها نفسها:

- لوي... تريدين شيئاً؟

- لماذا تستخدمين مكتبة نيل؟ هل طلبت إذناً منه للقراءة هنا؟

فأغلقت جنيفر الكتاب بحدة ووقفت... وسألتها بصوت أجش:

- ولما أحتاج إلى إذن منه؟ إنه ليس هنا. ولا أظنه سيعترض... أنا اقرأ فقط... ولا أتطفل على شؤونه الخاصة.

فاتسعت فتحتي أنف كاترينا:

- إلام تلمحين سنيورينا؟

دهشت جنيفر عندما رأت ردة فعل المرأة الدفاعية.

- ما قصدت شيئاً...

- أعلم قصدك سنيورينا... فأنت سريعة في الإجابات الذكية... أهذا ما تقولينه له...؟ أبهذه الطريقة تأملين أن تلفتي حول اصبعك الصغير؟ خاصة وأنا لست موجودة لأدافع عن نفسي؟

- كاترينا...

فقاطعتها مديرة المنزل:

- لا...! أنت إذن تتعلمين الإسبانية كذلك؟ ربما تحاولين

اقناع «الباترون» بالبقاء هنا إلى الأبد...؟

وضحكت بخشونة:

- أنت حمقاء! لا تخدعك أوهامك... فحالما تبلغين سن الرشد سيعيدك إلى بلادك... حيث تنتمين!

مغادرة كاترينا الغرفة تركت إحساساً بالمرارة في الجو. ووجدت جنيفر نفسها غير قادرة على إكمال عملها... فأعادت الكتاب مكانه، وغادرت. معترفة أن كاترينا قد ربحت الجولة في هذه المعركة.

استيقظت جنيفر في الصباح التالي فوجدت نوافذها مشبعة بالمطر، الستائر مبتلة. بسبب تسرب المطر من أبواب الشرفة. فهرعت إلى النافذة لتحدق في الجو الرمادي المكفهر الذي حجب التلال وراء ستارة من الضباب.

ارتدت سروالاً صوفياً دافئاً وكنزة صوفية ذات ياقة مرتفعة تحيط بوجهها... ونزلت إلى الفطور تحس بالاكتئاب. وقد زادت رؤية نيل، يجلس على طاولة المطبخ يشرب كوباً من القهوة... من اضطرابها. ولكن ما أثار دهشتها وجود الأطباق غير نظيفة وهذا يعني أن كاترينا ليست هنا.

نظر إليها... ثم وقف، بدا نحيلاً قوياً في سترة وسروال جلديين. وحذاء طويل الساقين أسود.

قال لها بانحناءة مؤدبة من رأسه:

- استيقظت باكراً... أتريدين بعض القهوة؟

- أستطيع صبها بنفسي.

أخذت تنظر حولها تفتش عن إبريق القهوة، فوجدته يغلي فوق النار... ثم قالت بطريقة عفوية:

ـ أين كاترينا؟

فرفع قدمه ليضعها على الكرسي واتكأ على الطاولة:

ـ ألم تقل لك؟

عندما بدت الحيرة عليها أردف:

ـ إنها ليست هنا... ريكو أقلها بالسيارة إلى «فالفيدرا» أمهما مريضة!

ـ أمهما؟

لم تكن جنيفر تعلم أن أم كاترينا حية، فأطلق نيل بقوة:

ـ هذا صحيح! وصلت رسالة يوم أمس، عبر الطبيب في بورتونوفا فالسنيورا غوميز كانت مريضة منذ بعض الوقت، ولكنها الآن أدخلت إلى المستشفى، وطلبت رؤية ولديها.

ـ آه... فهمت... إنها لم تذكر شيئاً أمامي.

ارتشفت قليلاً من قهوتها، وكشرت وجهها لمذاقها المر، فهي لم تضع السكر أو الحليب. عندها أنزل نيل قدمه إلى الأرض، واستقام:

ـ لا... لم تكن تريد الذهاب... ولكنني أقنعتها بالذهاب.

ـ وهل فعلت هذا؟

أحست بغباء سؤالها، ولكنه الشيء الوحيد الذي خطر لها. أحست بطريقة ما أن لهذا علاقة بالطريقة التي كلمتها كاترينا بها في اليوم السابق... وتحرك نيل ليشعل سيكاراً من الموقد:

ـ أجل... طبعاً كانت قلقة بشأن عملها هنا. إنها مديرة منزل حية الضمير.

ـ أنا واثقة من هذا... كم ستغيب؟

ـ من يعلم؟ ربما يومين أو ثلاثة... أو أسبوعاً! هذا وقف على حالة أمها.

ـ صحيح... هذا طبيعي... أتمنى لأمها الشفاء بسرعة.

ـ أحقاً تتمنين هذا؟

وقفت لتجمع الأطباق القذرة ثم وضعتها في المغسلة تجنباً لرد مباشر. فقد أحست برضى، بينما كانت تعمل أخذ ذهنها يعمل كذلك... إذا كانت كاترينا بعيدة فهذا يعني أن لا أحد يعتني بالمنزل أو بالمطبخ... ودون ريكو... سيكون المنزل لها وللآنسة نيوبولت فقط، لأن نيل وانريكو سيكونان في العمل.

فتحت الحنفيات فوق الأطباق في المغسلة، لكنها فوجئت بنيل يتقدم منها ليغلقها قائلاً بخشونة:

ـ أنا واثق أنك في شوق لإثبات مقدرتك... ولكن هذا غير ضروري، فالطاهي، تشان، سيطهو لنا مع الآخرين وزوجة باتريك تتوق إلى خدمتنا هي وابنتاها.

التوت شفتا جنيفر غضباً فصاحت به:

ـ لقد تمتعت بقولك هذا...؟ أنت تعلم أنني أقصد أن أكون مفيدة لمرة واحدة... ولكنك تتمتع بإفساد الأمر علي...

فنظر إليها ساخراً:

ـ لعبة «اليوت» قد تروق لك في هذه اللحظات... ولكنني لا أعلم كم ستغيب كاترينا... ولا يمكنني رفض عرض باتريك بينما سأضطر بعد أيام لطلب العون منه مجدداً.

ـ ومن تظنه اعتنى بأبي ستة أشهر قبل موته؟ لم تكن

تستطيع دفع أجرة خادمة... فكنت أهتم به وباليت وبالحديقة!

ـ ولكن ذلك المنزل الصيفي في انكلترا لا يقارن بمنزلي... أيمكن هذا؟ انسيت الآنسة نيوبولت؟

ـ إنها لا تحب كاترينا أكثر مما أحبها... وأظنها ستكون سعيدة بمساعدتي...

ـ لا... جنيفر.

ـ ماذا تعني... لا؟ من المفترض أن يكون هذا منزلي كذلك.

ـ لا.

ـ ولماذا لا؟

ـ لا أنوي الجدال معك.

فرفعت كتفيها دليل الهزيمة:

ـ أراهن أنها جعلتك تعدها بأن لا تجعلني أقوم بشيء؟ ما هي السلطة التي لها عليك؟ لماذا تتصرف دائماً وكأن لها الحق هنا؟ الآنسة نيوبولت تعتقد أنها عشيقتك... فهل هي كذلك؟

تفرّس فيها نيل للحظات، ثم تلاشى البرود من عينيه ليحل مكانه الاعجاب:

ـ أتدركين عما تسألين؟ لو أن رجلاً قال هذا...

فاحمر وجه جنيفر ولم تتمكن من فهم حقيقة نظرته، فأخفضت عينيها بحرج... وتساءلت كيف تجرأت على طرح سؤال كهذا.

ـ لا تظني أن ما حدث بيننا يعطيك الحق بمعرفة من أقضي ليالي معها... وإذا كنت نمت في فراش كاترينا فهذا شأني أنا... وحدي هل هذا واضح؟

فطأطأت برأسها:

ـ تماماً.

فابتعد عنها:

ـ جيد... ماذا ستفعلين اليوم؟

لم تستطع منع الارتجاف عن صوتها.

ـ اوه... حقاً... تبدو تماماً مثل الآنسة نيوبولت! بالله عليك! لماذا تصر على معاملتي كأنني في الثانية عشرة من عمري.

ـ لقد بحثنا هذا الأمر من قبل.

ثم وقف في النافذة ينظر إلى الطقس:

ـ تباً لهذا الطقس! أريد أن... حسناً... لدي عمل.

ومد يده ليأخذ المعطف المشمع الواقي من المطر فسألته:

ـ هل أنت خارج؟

ـ ألا يبدو لك هذا؟

ـ أجل.

ـ إذن فأنا خارج.

ـ وهل ستذهب راكباً؟ هل استطيع المجيء معك؟

ـ في مثل هذا الطقس؟ لا أظن.

ـ أستطيع أن أتدثّر جيداً.

فرد بغضب:

ـ اسمعي... أنت لم تستردي عافيتك بعد من الانفلونزا... ولا شيء اسوأ من الجنون سوى أن أسمح لك بالركوب في طقس كهذا.

فتنهدت:

ـ لكنك لا تسمح لي القيام بأي شيء آخر.

ـ أنت تصعبين الأمر علي جنيفر!

ـ آسفة.

ـ يا إلهي... حسناً بإمكانك العناية بالمنزل اثناء غياب كاترينا... و...

ولم يستطع إكمال ما سيقوله، فقد رمت نفسها عليه، تعانقه بنهور وتطبع قبلة حارة على خده. يداه اللتان امتدتا لتبعدانها عنه اتخذتا فجأة ردة فعل معاكسة، فانزلقتا إلى خصرها تجذبانها إليه.

انتزع نفسه بعيداً عنها عندما سمع الباب الخلفي يفتح... كانت النظرة التي رافقت انسحابه متجهمة... فقد دخل انريكو، متجنباً النظر إلى رئيسه... وأخذت جنيفر تجذب كنزتها إلى الأسفل لتغطي خصرها الذي بان من تحتها، ثم واجهت رئيس العمال بكل رباطة جأش استطاعت أن تجدها.

تبع انريكو إلى المطبخ فتاتان موحلتان، كل منهما تحمل غطاء فوق رأسها للحماية. تنورتاهما مبللتان بسبب ركضهما من السيارة إلى المنزل فقط. وجودهما منع انريكو من أي تعليق بشأن المشهد الذي رآه. لكنّ عينيه السوداوان كانتا تشيران إلى شيء ما... عندئذٍ أملت أن لا يوبخ نيل على صغر سنها... فما هم كم تبلغ من العمر؟ عندما يضمها بين ذراعيه، عندما يضغطها إلى جسده القاسي... تحس أن لها عمر حواء... ولها نفس اللهفة لتذوق الفاكهة المحرمة.

قال انريكو يقدم الفتاتين لجنيفر:

ـ هاتان لوسيا وإلينا.

فابتسمت لهما... كانتا متشابهتين، صغيرتان سناً وبدينتين

وسمراوين، لهما معاً قسمات جميلة. لكن نظراتهما إليها كانت خجولة.

استدار انريكو إلى رب عمله، الذي كان يضع القبعة الواقية.

ـ لقد قلت للويزا إنني سأطلبها إذا احتجت إليها هنا.

فالتفت نيل بهدوء إلى الفتاتين:

ـ السنيورينا هانت ستقول لكما ما تريدكما أن تفعلا. أنتما تفهمان الانكليزية قليلاً... أليس كذلك؟

فتمتمت جنيفر بحذر:

ـ أبل وان يوكو اسبانول... وأنا أتكلم القليل من الإسبانية كذلك يا نيل.

ـ أتتكلمين الإسبانية... ومن علمك؟

ـ علمت نفسي.

فهز رأسه مستغرباً ثم استدار إلى الفتاتين:

ـ حسناً... ربما ستتمكنون من التفاهم.

ثم التفت إلى جنيفر وكأن قوة خفية تدفعه:

ـ هل كنت تقرئين كتبي؟

ـ بعضها.

ـ إذن هذا أنت... هل تظنين أن بإمكانك النجاح؟

ـ سأحاول.

شاهدت في عينيه ارتجاف السرور المتردد، والاعجاب. لكنه أدرك فجأة أن نظراتهما وحديثهما الحميم تراقبه ثلاثة أزواج من العيون... فتحرك نحو الباب... قائلاً باختصار:

ـ حسناً... هل أنت قادم انريكو؟

لم ينتظر انريكو كثيراً ليلحق به، لكنه أرسل غمزة من عينيه باتجاه جنيفر. بعد ذهابهما انطلقت الفتاتان تتحدثان همساً... فلزم جنيفر كل رباطة جأشها كي تبقى حيث هي إلى أن التفتا إليها. فقالت:

- ايستابيني... هل نبدأ العمل الآن؟ أنت لوسيا وأنت ايليتا... سي؟

فردت لوسيا، الكبيرة:

- سي... وأنت سنيورينا هوت.

- هانت... ولكن لكما أن تناديني جيف... سي؟

فقالت الفتاة الصغرى التي هي بعمر جنيفر تقريباً.

- جييف... سي جييف.

أخذت لوسيا وايليتا تغسلان الأطباق الوسخة وأقبلت الآنسة نيوبولت. فكان أول ما فعلته فتح النافذة على مصراعيها ليخرج منها الهواء المشبع برائحة المطبخ. لكن هذا سبب ضغطاً في جو المطبخ أثر على عمل المدخنة فسارعت جنيفر لإقفاله... وقالت:

- كاترينا ستغيب بضع أيام... لذا فأنا المسؤولة هنا... هل أعطيك بعض القهوة؟

نظرت الآنسة إلى الفتاتين اللتين كانتا تنظران إليها بتوتر لم تستطيعا اخفاءه... ثم قالت:

- استطيع تحضير فطوري.

تناولت فنجاناً من الخزانة، واقتربت من إبريق القهوة:

- أين ذهبت السنيورا بائرفاه؟

- إلى فالفيدرا. اقنعت نيل أنني... قادرة على إدارة المنزل اثناء غيابها.

- وهل ستقدرين؟

فاجأ السؤال جنيفر... لكنها لم تستطع اخفاء حيرتها:

- إنها مسألة ايجاد الأشياء... كاترينا لم تخبرني من قبل أين تحتفظ بأي شيء... وعندما تنتهي الفتاتان من عملهما، لا أدري ما سأكلفهما به.

- فليرتبا الأسرة. وفي هذه الأثناء نرى محتويات هذه الخزائن.

اكتشفت جنيفر قرب المطبخ غرفة مؤونة كبيرة تحتفظ فيها كاترينا بمعظم ما تحتاج إليه من أكياس الأرز والحنطة والمعلبات إلى اللحوم والخضراوات الموضوعة في برادات وقد أذهل جنيفر تنوع الأطعمة الموجودة هناك وصممت، في غياب كاترينا، على أن يكون لهم نظام طعام مثير أفضل من النظام الثابت الذي كانوا يتناولونه، من البخنة التي تطبخ في الأطباق وتقدم على المائدة، كما كانت تفعل كاترينا... ستتحدث إلى «تشان» لتقول له إنها تنوي أن تطهو وجباتهم بنفسها... وعندها سيكتشف نيل الفرق بنفسه... ثم راحت تتصور نفسها معه يتعشيان على ضوء الشموع.

اكتشفت كذلك أن كاترينا لم تكن مدبرة منزل كفوءة كما توهم الجميع... فلم تكن نظامية وقد وجدت الآنسة نيوبولت مآزر لمدبرة المنزل، وأعربت عن اشمئزازها من الطريقة التي تركت العديد من أدوات المطبخ تتلوث وتفقد بريقها. ووجدت بعض مواد التلميع، فأمضت هي والفتاتان ما تبقى من الصباح ينظفن أوعية المطبخ، ليحولن خارجها الأسود إلى نحاس لامع

يرافق.

ونظفت جنيفر الخزائن والرفوف التي بدا أنها لم تمس منذ سنوات. وكان وجهها مبتلا بالعرق، متسخاً بالغبار عندما وصل تشان ومعه الغداء. ووضع الطاهي طبق اللحم الممزوج بالعلعالم والحرّ الأحمر على الطاولة، فصاحت جنيفر:

ـ لا... تشان... أريد التحدث إليك. طلب منك السيد ستيوارت تحضير وجبات الطعام لنا... حسناً... سأطهو طعامنا بنفسي فلا داعي إلى أن تزعج نفسك.

ـ ما من ازعاج... أتعنين أنك لا تريدين العشاء الليلة؟

ـ لا... فسأحضر للسيد ستيوارت طعاماً انكليزياً من قبيل التغيير. لن تمانع... أليس كذلك؟

فابتسم تشان بقلق:

ـ لا... إنه قرارك ستيورينا... أتمنى لك الحظ.

ـ شكراً لك.

أقفلت جنيفر الباب خلف الطاهي الصيني، ثم التفتت إلى الآنسة نيويولت بشجاعة وشرعت تصب اللحم المطبوخ في الأطباق.

توقف المطر عن الهطول بعد الظهر، ولكن الجو الكئيب استمر، فأشرفت الآنسة نيويولت على لوسيا وايلينا وهما تنفضان السجاد وبسط الطابق الأرضي، وتزيلان الغبار عن المفروشات وتلمعانها... التقطت جنيفر باقات من الزهر لتضعها في مزهريات في الردهة ولما حان إعداد الطعام كانت تشعر بالتعب حتى تمنت لو تركت تشان يحضره لهذه الليلة فقط... أما الآنسة نيويولت فقد استحمت بعد أن جاء باتريك

ليرافق ابنته إلى المنزل.

قررت جنيفر تحضير طعام انكليزي تقليدي من الروستو والفطائر يتبعه فطيرة من التفاح... لكنها وجدت بعض الصعوبة... فمن الصعب تقدير قوة حرارة الموقد، فلا ميزان للحرارة فيه... لكن إذا كانت كاترينا تعاطت مع ذلك بنجاح فهي قادرة أيضاً.

جعلتها رائحة الروستو اللذيذة تستريح ونطمئن. أصبح كل شيء الآن على ما يرام. فاللحم على النار، والكريما جاهزة للحلوى، والخضار معدّة. ولم يعد أمامها سوى تحضير الطاولة وتبديل ثيابها قبل التحضيرات الأخيرة للعشاء.

صعدت إلى غرفتها لتستريح حتى تخرج الآنسة نيويولت من الحمام فاستلقت على الفراش تاركة طراوة الفراش تحتضن جسدها التعب. هل هي حقاً أمضت إحدى عشرة ساعة في العمل؟ بدا لها الوقت أطول من هذا... حقاً... لقد حدث الكثير منذ هذا الصباح... بدا لها وكأن أياماً مرت لا ساعات...

ما هذا اليوم! مددت ذراعيها بكسل فوق رأسها... لقد بدأ اليوم ممطراً... ثم تحول إلى نعمة لأنها ستبقى مع نيل... مدت لسانها لترطب شفتها العليا... نيل... وتنهدت.

تلك اللحظات الساحرة مع نيل في المطبخ دعمت قوة تحملها طوال النهار، قوة ذراعيه، حرارة جسده... لا يهم انه فقد صبره معها... قد ينكر انه تمتع بعناقها... لكن عاجلاً أم آجلاً سيعترف.

وارتفعت بسمة عند أطراف فمها... وأغمضت عينيها... وقبل أن تشعر... تغلب عليها النوم.

● ● ●

٧ ـ عاصفتان

استيقظت والغرفة غارقة في الظلمة ثم أحست بأنَّ جسدها نصف عارٍ تحت الغطاء... لمست بحذر جسدها فعلمت أنها لا ترتدي سوى البيكني... عبست وهي تحاول تذكر مكان وجودها وسبب نومها في ثيابها الداخلية فقط.

دويُّ الرعد الفجائي الذي تبع البرق الخاطف للبصر جعلها تجلس مجفلة... فحدقت بارتباك إلى النوافذ غير المغطاة بالستائر... إذن، لا بد أن العاصفة أيقظتها.

رمشت عينا جنيفر وأرجعت شعرها إلى الوراء تحاول التفكير. كم الساعة الآن؟ متى بدأت العاصفة؟ متى أوت إلى الفراش؟ ولماذا لم ترتدِ ثياب النوم؟ ثم تذكرت...

جف فمها وهي تتذكر أحداث اليوم السابق... جدالها مع نيل... وخضوعه لها كرهاً والطاقة التي صرفتها في تنظيف خزائن المطبخ... وخطتها للمساء... و... العشاء...!

لم تعد مهتمة الآن بالبرد. بل رمت الأغطية، ووضعت قدميها على الأرض فوق السجادة الناعمة. توقفت للحظات متسائلة عمن خلع عنها ثيابها... ووضعها تحت الأغطية. لا بد أنها الآنسة نيوبولت... لكن لماذا لم تلبسها ثياب النوم. ليتها أيقظتها... إنَّها دون شك تعلم كم تتوق إلى تحضير أول

وجبة لها... وها قد حرمت من هذا الانتصار البسيط.

فتشت في الظلام فوجدت ثوب نومها القطني، ودفعت ذراعيها داخل كميه. ثم لفت طرفيه حولها... ومدت يدها لتضيء المصباح. لكن الزر تحرك عدة مرات دون جدوى... لا بد أن العاصفة قطعت التيار. فاتجهت إلى النافذة ونظرت إلى الساعة بإمعان، فبدا لها أنها تشير إلى ما بعد منتصف الليل... لقد مرت الأمسية وانتهت، ولا بد أن الجميع الآن في أسرتهم.

أحست، بخوف، انها تكاد تبكي. فتحت باب غرفتها لتنظر إلى الخارج... لمعان نور البرق أنار لها الممر. ولكنها لم تسمع أي صوت إلا الرعد... لا شك في أن الجميع نيام... رائحة الروستو الذي أعدته ما يزال عالقاً في الجو، فذكرتها الرائحة بأنها جائعة... وبصمت خرجت إلى الممر ومنه إلى السلم.

بعد ذلك دخلت المطبخ، فأحست للمرة الأولى بالرضى بسبب حرارة الموقد العتيق. فمدت يديها نحو الحطب المشتعل قبل أن تتناول بعض الحليب من البراد. بينما كانت تشرب الحليب لاحظت أن لا أثر للوجبة التي طبختها. فأحست بموجة امتعاض. لا بد أن الآنسة تيربولت أكملت صنع الحلوى وقدمت الوجبة بنفسها... هل ذكرت يا ترى أنها هي... جنيفر قد حضرت كل شيء؟ لكن ربما كان الرجال تواقين للطعام فلم يطرحوا أي سؤال.

وقع أقدام في الفناء الخارجي أجفلها... وسرها أن التيار قد عاد قبل قليل لكنها لم تضيء نور المطبخ... وتصورت أن

أحد رجال المزرعة عائد من سهرة في مكان قريب.

وبدأت أصوات وقع الأقدام تقترب من المنزل... وفي فورة ذعر تساءلت عما إذا كان نيل قد تذكر اقفال الباب أم لا... أهو من واجبات كاترينا؟ هل نسي الأمر في غيابها؟

تسمرت من الرعب، لكنها ركزت عينيها على مقبض الباب الذي بدا لها باهتاً في وهج النار... كانت تمسك بكوبها وكأنه نوع من القذائف يمكن لها أن ترميه على متطفل محتمل. عندما أدير المقبض وانفتح الباب، كادت ترميه. لكنها رغم الضوء الضئيل المنبعث من النار، استطاعت تمييز شكل نيل. فصرخت بارتياح ووقع الكوب من يدها ليتحطم على الأرض.

- يا إلهي... جنيفرا

أقفل الباب ليستند إليه، ثم تحركت هي إلى دائرة الضوء... ولم يكن معروفاً أي منهما تلقى الصدمة الكبرى.

- ماذا تفعلين هنا بالله عليك؟ لماذا تتسللين في الظلام؟ ألم تجدي النور؟

- التيار كان مقطوعاً.

أجفلت عندما مد يده ليضغط الزر فشع المصباح في المطبخ فاستدار إليها:

- صحيح... انقطعت الكهرباء فخرجت لأرد التيار.

- في مثل هذا الوقت من الليل؟

فهز رأسه:

- لدينا ثلاجات... كما اكتشفت. لذا لا يمكن أن نسمح بذوبان ما فيها.

- لا... كان يجب أن أعرف هذا.

ـ ولماذا تعرفين؟ أنت لم تعتادي على نمط عيشنا بعد... هل أيقظتك العاصفة؟

ـ أظن هذا... وأنا آسفة على الكوب الذي كسرته، لكنك أخفتني.

ـ هذا من جرّاء نزولك إلى هنا. لماذا نزلت؟ هل كنت جائعة... أم خائفة؟

ترددت قبل أن تجيب:

ـ قليل من الاثنين... كما أعتقد.

أحست بالإثارة... إنهما وحدهما المستيقظين في المنزل. وإذا ظنها خائفة...

سمعته يقول:

ـ العواصف عندنا مخيفة... وهذه عاصفة...

استخدم كلمة إسبانية لم تفهمها لكنها قدرت أنها ليست اطراء على الاطلاق. وضحك، وهذه إحدى المناسبات النادرة التي لا يكون فيها حذراً أمامها... لماذا؟ ألأنه يظن أنه قادر على السيطرة على الموقف؟ أم أنه يظنها لن تتصرف بتهور إذا كانت خائفة؟

بدأت تلملم القطع الكبيرة من الكوب المكسور، وسألته:

ـ وهل ذهبت إلى فراشك؟

ـ لا... كنت أقرأ. لقد انقطعت الكهرباء من قبل أثناء العواصف وكنت أتوقع أن تنقطع الآن.

ـ آسفة لأنني لم أحضر العشاء... هل اعتنت بك الآنسة نيوبولت؟

ساد الصمت بضع لحظات قبل أن يرد:

ـ أجل... يمكنك قول هذا.

ـ أحس بالغباء... بعد أن... حضرت كل شيء.

فظهر الفضول على وجهه، ثم استدار ليضع بضع حطبات في النار. قال بعد قليل:

ـ أجل... لكنك كنت تعبة. فقررنا أن لا نزعجك.

ـ من الذي قرر؟

ـ أنا... في الواقع... كنت مرهقة... وما كان عليك إرهاق نفسك إلى هذا الحد.

ـ ولكن المكان كان قذراً... وكنت أعمل فقط ما كان يجب أن يتم منذ شهور عديدة!

ـ ربما... كان يمكن أن يتم هذا على مراحل.

ـ بالطبع كنت أعرف أنك ستقول هذا. فأنت لا تهتم بأن تكون الخزائن والرفوف مليئة بخيوط العنكبوت أو أن تكون المقالي التي تأكل طعامك منها سوداء!

التوت شفتاه تسلية عند هذه النقطة، فازدادت سخطاً... وقال:

ـ أنا آكل من الأطباق والصحون، لا من المقالي. لكن هل أفهم أنك أنت من نظفتها.

ـ أيها... أيها الـ...

ونظرت إليه بغضب، فضحك لوجهها الغاضب:

ـ أنا آسف... ومن الطبيعي أن أكون شاكراً ما فعلته... لكن ما كان عليك إرهاق نفسك إلى درجة جعلتك لا تستطيعين البقاء يقظة.

ـ كان على الآنسة نيوبولت أن توقظني. أردت تقديم العشاء بنفسي. أردتك أن تتمتع بعشاء انكليزي محترم.

فهز كتفيه بعدم اكتراث، وأزاح ما تبقى من زجاج مكسور إلى الموقد ثم قال:

- انسي الأمر. حان وقت نومنا... فالغد يوم طويل.

اضطرت جنيفر أن تسير أمامه صاعدة السلم، لكنها كانت تجر قدميها جراً. ولمّا اقتربت من باب غرفتها، تقدم ليضيء لها مصباح الكهرباء. وتراجع جانباً اثناء ولوجها الغرفة:

- هل أنت بخير الآن؟

عندها فقط لاحظت عودته إلى التحفظ. في تلك اللحظة اختارت صاعقة ضخمة أن تنفجر في الجو فوق المنزل، ورغم قلة اكتراثها بالعاصفة أجفلت بعنف. وكان شحوب وجنتيها كاف لإيقافه عند الباب. فعاد إليها وهو يتمتم لاعناً الرعد... ولف ذراعه مطمئناً حول كتفيها.

- لا بأس عليك... أنت آمنة هنا. صوتها الداوي يبدو أكثر سوءاً مما هي عليه فعلاً... صدقيني!

تحرك تفكيرها بجنون وهي تدفن وجهها تحت ذراعه وتسمع ضربات قلبه الخافقة بسرعة متزايدة تحت وجنتيها.

- أنا... أكره العاصفة! ولطالما كرهتها. منذ... منذ كنت صغيرة!

- لست كبيرة الآن... هل أيقظ الآنسة نيوبولت؟

فرفعت رأسها تنظر إليه ثم ردت فوراً:

- لا! لا تفعل هذا. أعني سأبدو أمامها غبية...

- وهل ستكونين بخير وحدك؟

- لِمَ لا تبقى معي فترة بسيطة حتى تنتهي العاصفة؟

وكاد يتسحب لولا إمساكها بيده التي تمسك بكتفيها:

- أنا! جنيفر هذه العاصفة تدوم حتى الصباح!

- اوه... أرجوك...

- لا استطيع البقاء هنا. لكن إذا كنت خائفة فعلاً فلم لا تأتين إلى غرفتي؟

- غرفتك؟

- ولمَ لا! لا فرق بين غرفة واخرى... لكنني لا أريد إغضاب الآنسة نيوبولت، بقضائي الليل في غرفتك.

وبخت نفسها على ترددها... أليس هذا ما تريده... فإن بقيت هنا فهذا يعني أنها تعترف برغبة طفولية في البقاء على مسمع الآنسة نيوبولت.

- حسن جداً.

أشار إليها نحو الباب بانحناءة قصيرة ثم اطفأ النور وأقفل الباب قبل أن يلحق بها عبر الممر إلى غرفته.

ودوى الرعد ثانية وهي تجلس في مقعد قرب سريره. الكتاب الذي كان يقرأه كان مقلوباً فوق الغطاء وقد ظهر على الغلاف اسم كاتب مشهور. لكنها لم تجرؤ على التقاطه... ووجدت عيناها مثبتين على بيجاما مرمية بإهمال فوق الوسادة... فامتدت يدها باندفاع فلمست القماش الناعم. وداعبته بين اصابعها.

- ماذا تفعلين؟

أجفلها صوت نيل الذي أتى من علو فجعلها تعي أنه يقف أمامها، يحدق إليها... في هذه اللحظة أحست برغبة جامحة في أن يلمسها حتى تحسّ بألم جسدي.

فرفعت القماش الناعم إلى خدها... لكنه انتزعه منها قبل

أن تلمسه شفتاها، ثم رماه أرضاً قائلاً لها بغضب:

- إذن لهذا جئت إلى هنا... يا إلهي! ماذا علموك في ذلك الدير؟

احترق وجه جنيفر خجلاً... لكنها بقيت حيث هي، في وقت كان فيه كل عصب من أعصاب جسدها يصيح بها أن تقف... وقالت محتجة بصوت أجش:

- أنا... أنا... لا أعرف ما تعني.

- هل سيكون والدك فخوراً بك إن شاهدك الآن؟ تتدسين في غرفة نوم رجل... مدعية أنك خائفة من العاصفة...

- قلت إنني لا أحب العاصفة... وأنا لا أحبها!

- وهل هذا ما تتعللين به لإقامة علاقة سرية؟

فاندفعت واقفة ترتجف من السخط... الإحساس بالظلم تخطى مشاعر الخوف من غضبه... فصاحت بشراسة:

- أنا لست هكذا. ألأنني لجأت إليك... ألأنني دون أب... تتصرف معي وكأنني... فاسدة!

فابتعد عنها يمرر اصابعه في شعره:

- اوه هيا... لم تأت إلى غرفتي بحثاً عن صورة والد. كلانا يعرف الأعاجيب التي تحبين القيام بها... لكن الوقت متأخر، وأنا تعب. ولا استطيع السيطرة على ما أفعل... هل أوضحت ما أقول؟ قد تجدين الوقت المتأخر مغرياً... ولكنني أجده مثيراً للأعصاب. وإذا لم تكوني خائفة من العاصفة. اقترح عليك العودة إلى غرفتك قبل أن تواجهي شيئاً لن تستطيعي مواجهته.

فجف حلق جنيفر، وقالت متلعثمة:

- أتعني... أنك تفضل... أن أبقى هنا؟

- يا إلهي القدير! كم تحبين الخوض بمثل هذه الأحاديث! حسناً! سأقولها لك بصراحة... الآن أود لو أنام معك... ولو كانت كاترينا هنا لوفت بالمطلوب!

- اوه!

ارتفعت يدها إلى فمها بذعر لوقاحة كلماته... لقد كان قاسياً من قبل، لكن ليس بهذه الوحشية. أحست كأنه صفعها على وجهها. ومع ذلك أردف دون رحمة:

- إذن... هل تفاهمنا الآن؟

بينما كانت تهز رأسها بالإيجاب أحست بحرارة الدموع تحرق محجريها قبل أن تنزل ساخنة إلى وجنتيها... وكأنه أحس أنه تجاوز الحد. وقف في وجهها وهي تركض نحو الباب... فأمسك كتفيها باصابع قاسية وهزها بلطف:

- اوه يا إلهي! جنيفر... أنا آسف...

حاولت جلب نفسها منه وصاحت بصوت مختنق:

- دعني أذهب... لا تأسف عليّ!

- آسف عليك... تباً، أحس بالأسف على نفسي! جذبها إليه.

وجهه مدفوناً في عنقها، جعلها عاجزة عن البقاء دون تأثر... فقد راحت يداها المحشورتان بينهما تتلمسان صدره... لكن ما أثارها أكثر كانت حرارة جسده وتجول فمه كالنار فوق وجهها...

عندما فقدت السيطرة على تصرفاتها. فلفت ذراعيها حول عنقه، والتصقت به تحس بتصلب جسده، ثم تنهد تنهيدة قبل أن

يحملها بين ذراعيه ليضعها فوق السرير.

بينما كانت مستلقية بين ذراعيه، قرع الباب. فقدا بذلك عزلتهما... شخص ما يقرع الباب، يطلب الدخول... وتصاعد صوت الآنسة نيوبولت منادياً:

- سيد ستيوارت...؟ سيد ستيوارت؟ هل أنت هنا؟ هل استطيع التحدث إليك لحظات؟

تصلب جسده... وأغمض جفنيه ليخفي القلق في عينيه وتمتم بصوت منخفض:

- لا... لا... ليس الآن!

فعقدت جنيفر ذراعيها حول عنقه وهمست:

- لا ترد... ستذهب الآن...

- وإذا لم تذهب... لا... تباً لها. يجب أن أرد! تدثري بالغطاء... لن اتأخر.

تدثرت جنيفر بالغطاء مطيعة... في حين أن نيل توجه متوتراً إلى الباب... فوجد الآنسة نيوبولت تنتظره بتوتر ظاهر مرتدية ثياب نومها وروبها الصوفي الأزرق وغطاء الرأس، تغطي وجهها بمسحوق ليلي.

- اوه... سيد ستيوارت... أنا قلقة... جنيفر ليست في غرفتها.

فرد عليها بصوت ثابت هادىء:

- ليست في غرفتها؟

- لا... لقد استيقظت، لست أدري لماذا، أظن بسبب العاصفة، أو لأن صوتاً تناهى إلي من غرفتها، قلقت، فهي لم تأكل شيئاً منذ الغداء... خرجت من سريري لألقي نظرة

عليها. لكنني لم أجدها هناك فقد كان سريرها فارغاً.

وساد الصمت لحظات قطعه نيل بقوله:

- وربما نزلت إلى المطبخ لتأكل شيئاً.

- لا نور في المطبخ.

- وربما اطفأته لئلا تزعج أحداً.

- لعلك على حق... هل أنزل لأتأكد؟

فتردد ثم قال:

- وربما هذا أفضل ما تفعلينه... سأرتدي بعض الثياب اثناء تفقدك المطبخ فإذا لم تكن فيه أخرج لأفتش عنها.

بعد أن ذهبت الآنسة نيوبولت، تقدم نيل من جنيفر وهو غير رابط الجأش وقال: «هيا بنا!» فحدقت إليه دون كلام فأضاف:

- اخرجي من السرير، أريد إعادتك إلى غرفتك قبل عودتها!

- نيل!

أشاح وجهه عن توسل عينيها.

- أنا أعني ما أقول جنيفر... كنت غبياً عندما تركتك تبقين هنا... والآن أسرعي.

- لكن نيل...

- اوه يا إلهي! يجب أن تذهبي.

ثم أمسك كتفيها الناعمتين فمالت إلى الأمام تلمس عنقه بشفتيها... وهمست:

- أحبك.

- إلى النوم جنيفر!

وتركته تجهش بالبكاء.

بعد دقائق عادت الآنسة نيوبولت لتطرق بابها... وترفع حاجبيها دهشة عندما ردت عليها جنيفر وهي في ثياب النوم.

ـ هل كنت في الحمام طوال الوقت... اوه يا عزيزتي! قلقت عليك!

ـ لا داعي إلى قلقك هذا.

ـ ألم تسمعيني أتحدث إلى السيد ستيوارت؟ أخشى أن أكون أقلقته دون ضرورة.

ـ أجل لقد قال لي.

ـ اوه... يا عزيزتي... لقد وجدك بالطبع... بدا منزعجاً لما حدث... لكن لو كنت أعلم...

ـ ألا يمكن أن نتحدث عن هذا في الصباح... أنا تعبة، آنسة نيوبولت!

ـ اوه... اوه بالطبع. تصبحين على خير... نامي جيداً.

ـ شكراً لك.

أقفلت الباب واستندت إليه عدة دقائق قبل أن تتحرك نحو الفراش. وعندما غرقت في الراحة التي توفرها الأغطية. استلقت في الظلام. هي الآن تعرف أنها بإظهار مشاعرها إنما أذلت نفسها تماماً.

●●●

٨ ـ ثمر الجبال

استغرقت جنيفر في النوم حتى التاسعة من صباح اليوم التالي فجرّت نفسها جراً لتنزل إلى الطابق الأرضي حيث وجدت الآنسة نيوبولت تخرج صينية خبز من الموقد. أما ابتنا ايفانوس فكانتا تغسلان الخضار في المغسلة. فأحست عندها أنها دخيلة على المطبخ.

جالت باضطراب حول الطاولة النظيفة... فوضعت الآنسة نيوبولت إبريقاً من القهوة وطبقاً فيه خبزاً ساخناً وبعض الزبدة أمامها. وقالت بكياسة:

ـ تناولي طعامك... لوسيا عندما تنتهين من غسل اللوبياء، اذهبي واسألي تشان، أين يحتفظ السيد ستيوارت بالزيت.

جلست جنيفر على كرسي قرب الطاولة، ومع أنها ارتشفت قهوتها برغبة، إلا أنها لم تمد يدها إلى الطعام. إذ بدت لها الآنسة نيوبولت تتمتع بوجودها في المطبخ... هادئة، كفوءة... بينما كانت هي تكافح كي تتذكر حماستها التي كانت في اليوم السابق. بعد ذهاب لوسيا للحديث مع الطاهي الصيني... التفتت الآنسة إلى جنيفر:

ـ لولا معرفتي بأطباع السيد ستيوارت، لقلت إنه أخبرك عن العشاء الكارثة الذي حضرته ليلة أمس.

فشهقت جنيفر:

ـ عشائي؟ وما خطبه؟

ـ ما خطبه؟ يا طفلتي العزيزة، ما من أحد يطهو الروستو من لحم الكتف... هذا على الأقل. إلا إذا كان لديك ساعات طويلة للانتظار حتى ينضج.

فحدقت فيها جيف مذهولة، ونسيت بؤسها الشخصي أمام رغبتها في الدفاع عن قدرتها على الطهو.

ـ هل يعني هذا أن اللحم كان قاسياً؟

ـ قليلاً!

ـ الفرن هو السبب! لم يكن ساخناً كفاية.

ـ بل على العكس.

ـ وفطائر الحلوى؟

ـ لا بأس بها... مع أنها كانت هشة الصنع... لكن لا بأس.

فشهقت:

ـ ماذا... ماذا... قالوا؟

ـ من؟... السيد ستيوارت والسيد بيغليو؟ كانوا متعاطفين كما أعتقد.

ـ متعاطفين؟... لا أريد شفقتهما!

فهزت الآنسة كتفيها:

ـ كان يجب أن أحلرك... وكان يجب أن أوقظك ليلة أمس... لكن السيد ستيوارت قال إن من الأحسن تركك نائمة.

ـ أتعنين... أنه... منعك... من إيقاظي؟

ـ صحيح... لقد صعد إلى غرفتك، وعندما عاد قال إنك

نائمة.

ـ صحيح؟

فتذكرت جنيفر وقائع استيقاظها خلال العاصفة... وتذكرت الوضع الذي كانت عليه عند استيقاظها... فأضافت بفم جاف:

ـ هل قال شيئاً آخر؟

ـ لا... ماذا أصابك... هل كنت تنوين الاستراحة قليلاً أم ماذا؟

ـ لا... لقد أغمضت عيني فقط... هذا كل ما أذكره.

ـ ثم خلعت ملابسك قبل الدخول إلى الحمام؟

أحست جنيفر بخديها يحمران:

ـ ماذا؟ اوه... اوه... هذا صحيح. لا بد أنني أزعجتك.

فارتشفت الآنسة قليلاً من القهوة:

ـ أجل... ماذا قال لك السيد ستيوارت عندما وجدك؟

ـ لا. لا شيء... فقط أنك تبحثين عني.

فاستدارت الآنسة نحو الفرن وكأنها تصرف النظر عن موضوع الحديث:

ـ حسناً! اقترح عليك الآن الخروج لتنشق بعض الهواء النقي. تبدين شاحبة. أما أنا فسأصنع فطيرة للغداء. هل تحبين تناول اللحم المستيك؟

فتنهدت جنيفر:

ـ لا استطيع أن أذهب هكذا... وأتركك تعملين وحدك.

ـ تستطيعين وستفعلين. يكفيك ما تعرضت إليه من مرض. فلا تعرّضي نفسك لمرض آخر. بالأمس عملت جاهدة...

واليوم سترتاحين تحت أشعة الشمس لتجد قسماتك الشاحبة لوناً.

وصل انريكو وجنيفر تساعد عامل الاسطبل في الكنس. كان الجو بارداً ورطباً في الاسطبلات ورائحة الخيل كالترياق لنفسها المضطربة. تمتعت بالرفقة التي شاركتها مع الهندي العجوز، الذي فهم كل ما تحاول قوله بالإسبانية.

ودوت ضحكة رئيس العمال... وقال:

ـ ما هذا؟ قالت لي العجوز إنك ترتاحين... نينا!

فاستوت واقفة، لكن ظهرها آلمها نتيجة انحنائها.

ـ أردت الشرء راكبة... لكنك لم تكن هنا لمرافقتي.

ـ آهـ... لكنني هنا الآن... لقد جئت بشخص يود مقابلتك... ابني... غابريل.

ـ ابنك؟

لحقت به إلى الخارج... كانت قد سمعته يتحدث عن ابنه من قبل، وقد ذكر لها أنه يعمل عند نيل. لكنه كبقية العمال نادراً ما يقترب من المنزل.

ما كانت لتتعرف مطلقاً على الشاب المتكىء إلى جذع شجرة «الكاليبتوس» القديمة في الخارج، على أنه ابن انريكو... فبنيته كانت أنحف من بنية أبيه وقسمات وجهه بيضاء لا سمراء، أما عيناه فكانتا خجولتين لا وقحتين كعيني والده وشعره كان ناعماً مسترسلاً لا أجعد كشعر أبيه.

استقام لدى اقترابهما مبتسماً بلطف، فأحست فوراً بحالة يديها ووجهها المليئين بالغبار.

ـ هذا ابني... غابريل هذه السنيوريتا هانت.

فرد غابريل بانكليزية جيدة كانكليزية أبيه، لكن بصوت هادىء:

ـ أعرف هذا.

ـ غابريل يعمل في المزرعة منذ أن أنهى كليته، أي منذ ثلاثة أشهر... لكن عمله مؤقت... سيكون مهندساً... مثل «البارون».

فابتسم غابريل ثانية:

ـ ما يحاول والدي قوله إنني غير موظف في الوقت الحاضر... فليس هناك عمل لمهندس كما يوجد «الغاشوس» أي عامل مزرعة.

فابتسمت له جنيفر... إنه حقاً شاب وسيم... وسرّها أن تجد شخصاً غير نيل يستطيع إرباك انريكو. فسألته:

ـ وهل يعجبك العمل «كغاوتشو»؟

فهز رأسه:

ـ في الصيف... العمل جيد. أفضل بكثير من العمل في مكتب... ولكن مع قدوم الشتاء...

فقاطعه انريكو:

ـ في الشتاء ستعمل في البرازيل. أنت تعلم أن جاكسون عرض عليك وظيفة!

فهز غابريل كتفيه:

ـ لست أدري ما إذا كنت أريد الذهاب للعمل في البرازيل. على أية حال... خططي للمستقبل قد لا تهم سنيوريتا.

ـ أوه بل تهمني...

فقاطعها انريكو:

- هذا صحيح... سنيوريتا. غابريل هنا ليحل مكاني لبضعة أيام... الباترون يحتاجني، واقترح أن يكون غابريل البديل المناسب لي. إذا كان ليس لديك اعتراض.

اقتراح نيل...؟ احمر وجه جنيفر رغم الانكماش الذي أحست به... هل اقترح نيل حقاً أن يرافقها هذا الشاب الوسيم؟ ولماذا؟ ألأنه لا وقت لديه ليضيعه في رفقتها؟ أم أنه يريد أن يبعدها عن ظهره؟ ستجعله يخسر الكثير من غروره بسبب هذا التبديل... غابريل شاب وسيم... متعلم... وذكي... عمره يقارب عمرها هذا إن لم تكن مخطئة.

مسحت يديها القذرتين على مؤخرة سروالها وقالت:

- هذا... لطف منه... منكم كلكم. خاصة وأنني واثقة من أن غابريل لديه أعمال أكثر أهمية من مرافقتي.

فقال الشاب بتلهف:

- أنت تمزحين! سأكون سعيداً بخدمتك سنيوريتا.

فقاطعه الأب ليطمئنها:

- سيعتني بك جيداً...

ثم رفع رأسه إلى الشمس:

- ولا تنسي قبعتك.

أحست بالسعادة للشعور بالفرس البنية اللون تحت جسدها من جديد فأطلقت لمهرتها العنان، منحنية فوق عنقها وهي ترمح بها عبر المروج بخفة وطيش حتى وجد غابريل صعوبة في اللحاق بها فوق جواده القوي، المعد لسرعة فائقة. وأخيراً استراحت جنيفر، وانتظرته ليلحق بها.

- آسفة لهذا... ولكنني لم أخرج إلى هنا منذ زمن طويل.

- أخبرني أبي أنك كنت مريضة. لعلك استعدت عافيتك حالياً.

فضحكت:

- اوه... أجل. لم يكن مرضي سوى رشح بسيط.

- لكنه كان خطراً فدفعهم ذلك إلى إحضار الطبيب.

لكزت جنيفر جنبي فرسها، فقفز الجوادان معاً.

- اوه... تلك كانت فكرة الآنسة نيوبولت... أنت لم تقابلها بعد... أليس كذلك؟ إنها... م... مرافقتي.

فهز رأسه بمرح:

- لقد شاهدتها... الجميع شاهدها تركب الجواد. إنها ترتدي قبعة مستديرة... وسروالاً... هكذا!

وأخرج أطراف سرواله ليفتحها إلى آخرها يقلد حجم سروال الآنسة. فابتسمت جنيفر ثم اتسعت ابتسامتها لتصبح ضحكة:

- هذا صحيح... في الواقع هذه هي الثياب التي يرتدونها لركوب الخيل في انكلترا... مع أن ثيابها... قديمة الطراز.

وأظهر غابريل تفهمه... وأكملا الركوب بصمت... متبعين الطريق الذي اعتادته جنيفر مع انريكو... سارت على طول تعرجات النهر فترة. ثم تسلقت بخط مستقيم سفح التلة.

كانت رائحة الصنوبر والعرعار قوية بعد المطر، وقوة الشمس كانت تبعث تبخرات من الأرض على شكل ضباب... أحست بالغبطة للبرودة التي توفرها لها أطراف قبعتها. لكنها كانت دائماً تمد يدها لتبعد شعرها عن وجهها.

استدارت فوق سرجها قليلاً، فرأت سطح منزل المزرعة

تحت في الوادي، والنهر قد ارتفعت مياهه بسبب العاصفة. وشاهدت أغصان شجرة الاكاسيا (السنط) مغسولة بماء المطر خلف غرفة المستودع، ورأت كذلك أزهارها متساقطة منها خلال الليل.

ثم استدارت ثانية إلى غابريال... وقالت له فجأة:

- أتظن أننا سنرى الحصان الأسود اليوم؟ إنه وحش جميل... قوي مليء بالحيوية! لقد شاهدته عدة مرات. ولكنني أتوق للاقتراب منه.

- أليس هذا ما نتوق إليه جميعاً؟ لكنني لا أظن أن هذا ممكن سنيوريتا... من الأفضل أن لا نصل إلى الاخدود قبل أن يلقى القبض على السارقين... قال والدي...

فقاطعته:

- أي سارقين؟

وعرفت من تعبيرات وجهه أنه أحس بأنه قال شيئاً خاطئاً:

- ليس الأمر مهم.

واستدار ليشير إلى سرب أوز برّي يصعد من ضفة النهر:

- انظري إلى ألوان أذنابها سنيوريتا. أليست جميلة؟ لدي صديقة في الجامعة، ترسم الطيور...

فقاطعته بحدة بعد أن مدت يدها تمسك بقرن سرجه:

- غابريال...! لا أعبأ بالطيور بل أود معرفة ماذا عنيت بالسارقين! أتعني أن هناك... رجالاً...

- رجال؟ لا! إنه ليس سارقاً بشرياً سنيوريتا... ليس في سان غبريال.

- إذن ما هو؟ قط وحشي؟ قط الجبل؟ حيوان من نوع ما؟

لدى مراقبة تقاطيع وجهه أثناء حديثها علمت أنها في الطريق الصحيح:

- أسد؟ هذا هو إذن... أسد الجبل؟

فانحنت كتفا غابريال وقال متثاقلاً:

- إنه نمر «جاكوار» على الأرجح. سيقطع أبي رأسي لأنني أخبرتك عنه.

- إذن لهذا أمرّ نيل...

وصمتت فجأة تحس بوخزات الخوف الحقيقي. واستدارت متسعة العينين إلى غابريال:

- لكن «الجاكوار» يلتزم منطقته، ولا ينزل إلى الوادي!

قرر غابريال، بما أنها عرفت الأسوأ، فلا مانع من التحدث فتنهد:

- ليس في العادة... فهو حيوان مفترس نهاب. لكن كما قلت... لا يقترب عادة من الإنسان. لكن هناك شواذ لكل قاعدة. وعندما يصبح الحيوان كبيراً في السن... أو مريضاً...

فلعقت جنيفر شفتيها الجافتين:

- أتعني... إن هذا الحيوان كما وصفت؟

فتردد... ثم اعترف:

- أظن هذا.

لكنها أحست أنه يخفي عنها شيئاً. فسألته:

- وهل شاهدته؟

فهز رأسه:

- لا أنا، لا.

- والدك؟ أو نيل؟

- ربما.

لكنّ رده لم يرضها فصاحت بإحباط:

- غابريال! إذا كنت تعرف شيئاً آخر... أخبرني! يجب أن أعرف!

أخذ غابريال يتحرك فوق سرجه بقلق... ثم قال:

- حسناً... الجاكوار مصاب بجرح... غوميز، أحد رجال الباترون أطلق عليه النار منذ ثلاثة أسابيع.

- هل أنت واثق؟

- ايستو سيغورو... ايل باترون، شاهده بنفسه. لكن للأسف لم يكن معه بندقيته.

- يا إلهي!

تصورت أسوأ ما كان يمكن أن يحدث، فهزت رأسها بيأس.

- و... وذلك المخلوق نزل إلى الوادي؟

- ينزل بعد حلول الظلام... أجل.

- وهل قتل شيئاً؟

- ألا تقتل مثل هذه الحيوانات عادة؟ سي سنيوريتا... قتلت... الخراف... الماشية... ومنذ ليلتين حصان.

- ما أفظع ذلك!

ونظرت إلى الجبل أمامها نظرة من نوع جديد... وأكملت:

- و... هل هو مختبىء في مكان ما هناك؟

- أجل... في مكان ما... والآن... تعالي! أظن أن

علينا العودة...

فالتوت شفتاها:

- هل أنت خائف؟

وأحست بالندم على سؤالها لأن السخط ظهر على وجه الفتى. وهو يجيب بشراسة:

- لا! لكن والدي...

- أعلم... أعلم... والدك قال لك أن لا تأخذني إلى الجبل. هيا إذن... سأسابقك حتى النهر.

فصاح بها:

- احذري.

لكنها كانت قد لوت لجام فرسها، ولكزتها بقدميها... وابتسمت له وهي تبتعد والهواء يتلاعب بشعرها باعثاً إليها الراحة بعد القلق.

كانت تقترب من النهر عندما شاهدته... أقرب من أي وقت آخر... كان الحصان الأسود يقف بكبرياء على حافة النهر في الجانب الآخر... وبدا لها أنه يحدق فيها مباشرة... وعلمت أن اهتمامه كان بالفرس التي تمتطيها أكثر من راكبتها. فشدت اللجام، وفغرت فمها أمام جمال ذلك الجسد وتناسقه.

غابريال المسرع كالصاعقة خلفها، بهت للمنظر، فشد لجام جواده بسرعة، وتراجع محتجاً، وهذا ما أجفل الحصان الأسود رافعاً ذنبه بكل عجرفة، ودار على عقبيه، وقفز مبتعداً عبر العشب.

أحست جنيفر بالغضب لما اعتبرته، قلة حذر من غابريال. ثم زاد غضبها رؤية الحصان الأسود متوحشاً متوتراً.

- إنه جميل! أجمل حيوان رأيته في حياتي!

وحثت فرسها إلى الأمام وصولاً إلى النهر، بسرعة خالية من الحماسة. فجأة أحست بدنو الخطر قبل أن يحدث... لكنها لم تستطع منع الفرس من خفض رأسها، بسرعة جعلت جنيفر تتدحرج رأساً على عقب فوق العشب.

لم تتأذ في الواقع... بل صدمت، فانقطعت أنفاسها من الخوف. وتابع غابريال الطريق وراءها وتعابير وجهه ملؤها الخوف واللهفة. ففكرت في تمثيل دور المغمى عليها. لكن إحساسها الداخلي المنصف، لم يسمح لها بأن تمازحه لهذه الدرجة... خاصة أن اللوم عليها... وصياحه «جنيفر!» وهو يسرع إليها، جعلها تبتسم، وتقول بصوت منخفض:

- أنا بخير.

فانتزع قبعته وأخذ يتلاعب بأطرافها بين اصابعه بقلق:

- اديوس غراسيوس... (شكراً لله).

اصفرّ وجهه أكثر من وجهها... وانقلبت تجثو على ركبتيها، ثم مدت يدها نحوه معتذرة... وقالت:

- لقد ناديتني باسمي... جنيفر... وأتمنى أن تستمر باستخدامه فسنيوريتا... رسمياً كثيراً!

فأغمض عينيه قليلاً ثم فتحهما ومسح العرق عن جبينه:

- قلقت عليك... ألم تتأذي حقاً؟

ومدت ذراعيها تلوحهما من حولها:

- وهل أبدو لك متأذية؟

وتعالى الاحمرار إلى قسماته الوسيمة... وقال بصوت منخفض:

- لا... بل تبدين موى هيرموسا... (رائعة).

- أعرف ما تعنيه هذه الكلمة.

- صحيح؟

ومد يده إليها ليساعدها على الوقوف. عندما وضعت يدها بيده قالت له:

- أنت أنيق وشهم...

فضحك...

- فتاة جميلة تستحق دائماً الشهامة... لقد هربت الفرس... وأظن أن علينا الإسراع في العودة قبل أن يعتقد الجميع أنني أضعتك.

سمحت له أن يساعدها لتصل إلى حيث يقف جواده العربي الأصل. ثم قالت:

- لا أستطيع أخذ جوادك... هذا ليس إنصافاً!

- لن أعطيك إياه... إنه قادر على حملنا معاً... لو سمحت؟

ترددت جنيفر لحظات قصيرة قبل أن ترفع نفسها فوق ظهر الجواد. ولماذا لا؟ إذا لم يعجب هذا نيل، فلا يلومنّ سوى نفسه.

كانت الآنسة نيوبولت تنتظر عند مياح الحظائر عندما وصلا... متوتراً وجهها إشارة إلى الدقائق القلقة التي أمضتها في الانتظار... حلت الراحة سريعاً مكان الاستهجان عندما شاهدتها سالمة. ونظرت باستنكار للطريقة التي عادت بها، آمنة بين ذراعي غابريال. فأسرعت تساعد الفتاة على النزول حالما وصلت إليها. فسارعت جنيفر للقول وهي تبتسم لغابريال:

- إنها غلطتي... كنت غير حذرة... أود التظاهر! يؤسفني القلق الذي سببته عودة فرسي وحدها.

فمطت الآنسة نيوبولت شفتيها:

- الأسف لا يعوض عما شعرت به عندما عادت فرسك وحدها! رباه! ماذا كنت تفعلين؟ العشب يغطيك، حتى شعرك.

فضحكت جنيفر وقالت بخبث:

- لقد دحرجني غابريال فوق العشب!

نظرة الرعب التي أطلت من عيني الشاب، أقنعت الآنسة نيوبولت أنها لا تقول الحقيقة. فسألتها:

- أيمكن أن تخبريني هذا فيما بعد... اذهبي الآن واستحمي استعداداً للغداء. واشكري حظك لأن السيد ستيوارت لم يكن هنا عندما عادت مطيتك!

تلاشت بهجة جنيفر، فقالت بخشونة:

- أشك في أنه لاحظ ما حدث. هل سأراك في الغد غابريال؟

- إذا رغبت...

- أرغب.

واتجهت نحو المنزل... قبل أن تتمكن الآنسة نيوبولت من الاعتراض على ما قررته.

●●●

٩ - وحدها في العرين

كانت جنيفر في غرفتها عندما وصل نيل وانريكو. سمعت صوتيهما في الردهة، فخفق قلبها بسرعة. وتساءلت عما إذا كانا قضيا على الحيوان المفترس... ثم أدركت أنها لن تستطيع السؤال لأنها بذلك ستفضح غابريال.

ثم... كيف لها أن تواجهه بعدما حدث بينهما؟ لا فائدة من إقناع نفسها انه ملام كذلك. فهي من قصدت غرفته... وهي من شجعته... وعليها أن تشكر الله على مقاطعة الآنسة نيوبولت التي أنقذتها من نفسها.

في غرفة الطعام وجدت الآنسة نيوبولت تضع قطيرة اللحم على الطاولة. وهذا انتصار آخر تسجله لنفسها... عندها تذكرت بمرارة محاولتها الفاشلة في الليلة السابقة.

سمعت صوت نيل أولاً. ثم دخل انريكو وهي تضع الملاعق على الطاولة قرب الأطباق المحتوية على اللوبياء والجزر، والبازيلا والبطاطا المهروسة. حياها انريكو فوراً:

- هولا سنيوريتا...! تبدين مشرقة هذا المساء... لا يا باترون؟

- أنت تحرجها انريكو... أنا واثق أن هذا بسبب حرارة الفرن في المطبخ.

- ربما... أو ربما الذكرى النزهة التي قامت بها مع ولدي هذا الصباح. غابريال كان أحمر الوجه كذلك عندما سألته عن النزهة!

- اوه... صحيح.

بدا نيل غير مهتم، ثم هز رأسه مفكراً. واستدار ليجلس على المقعد في رأس الطاولة. وعندما أتيحت الفرصة لجنيفر أن تنظر إليه. لم تستطع أن تبعد أفكارها عن الذكرى التي أثارتها رؤيته فيها... فلمّا دخلت الآنسة نيوبولت، سارعت جنيفر تجلس على مقعدها قرب انريكو.

عند انتهاء الوجبة... التفت عيناها بعيني نيل... فاستقرت نظراتها عليه خمس ثوان أو أكثر، ثم أشاحت بصرها عنه وهي تشعر باضطراب من جرّاء تفرسه فكان أن سارعت إلى مساعدة الآنسة نيوبولت في تنظيف المائدة. وعندما وضعت الأطباق في المغسلة تساءلت عما إذا كان توقع منها مثل هذا التصرف مع غابريال... إنه استنتاج مرير... وكادت تتمنى أن تكون من النوع الذي يقدر على الانغماس في مثل هذه العلاقات دون رادع... فسيكون انتقامها عندها قاسياً بجعله يغار... فهو رغم كرهه لتصرفها معه لن ينكر ما تثيره فيه من رغبات.

في الصباح التالي وصل غابريال بينما كانت تساعد الآنسة نيوبولت على جمع البيض من خمّ الدجاج. ولم تكن سعيدة بما تفعل، بل انصب تفكيرها على الطقس الحار الذي ستجد فيه السعادة لو سبحت في مياه النهر الباردة.

عندما وقف غابريال في منتصف الفناء. وحياهما:

- بوناس دياس سنيوريتاس... أليس الصباح جميلاً؟

نظرت الآنسة إلى جنيفر زاجرة... ثم التفتت إليه:

- أتريد شيئاً سنيور؟

فقاطعتها جنيفر:

- طبعاً يريد. أنت تعرفين أنني طلبت منه المجيء لتقوم بنزهة اليوم أيضاً.

فعبست الآنسة:

- لتقمي ثانية؟

فتجاهلتها جنيفر ووجهت سؤالها إلى غابريال:

- ماذا حدث بالأمس؟ وهل وجد نيل نمر الجبل؟ أردت أن أسأل بالأمس... لكنني لم استطع.

نسيت أن تقول لغابريال إن الآنسة نيوبولت موضع ثقتها. لكن نظرة القلق كانت إشارة كافية منه:

- اوه... لا بأس. الآنسة نيوبولت تعرف. لكنني لم أخبر شخصاً آخر... صدقاً!

بقي غابريال مرتاباً... ولكن شوقه لمشاركة ما يعرف دفعه إلى القول:

- إنهم لم يشاهدوه حتى. هو وحش عجوز خبيث. المطر محى آثاره... لعلهم اليوم...

رغم الخوف الذي اجتاحها، اضطرت إلى التصرف بشكل طبيعي... فهي بأمس الحاجة للابتعاد عن المنزل وعن كل ما يذكرها بنيل... فأجبرت نفسها على الابتسام:

- هيا بنا نذهب... سأحضر قبعتي!

لكن صوت الآنسة أوقفها:

- جنيفر! إلى أين تظنين نفسك ذاهبة؟

- إلى الخيل... وإلى أين غير هذا؟

- حذار الذهاب للبحث عن... ذلك... المخلوق بنفسك.

* فرد عليها غابريال:

- لنا عقل أرجح من هذا سنيورينا! ثم، إذا كان الباترون لم يستطع إيجاد الوحش العجوز... فنحن بكل تأكيد لن نستطيع.

فوعدتها جنيفر:

- لن نتأخر... سأعود لأساعدك في تحضير الغداء... لِمَ لا ترافقيننا؟

تبدلت تعبيرات وجه الآنسة من التجهم إلى الابتسام.

- ألن يخيب أملك لو قبلت؟... لا يا عزيزتي... ليس هذا الصباح. أنا تعبة قليلاً... أعتقدني سأقرأ كتابي تحت أشعة الشمس.

مع صوت الريح الساخن على العشب المرتفع، والطيور المحلقة فوق الماء... أحست بسعادة مترددة فصممت على نسيان كل ما يتعلق بالموت والكوارث... لكن غابريال، المتقدم أمامها، أساء تفسير تعابير وجهها. فقال:

- لا تقلقي على الباترون... أعلم أن هذا هو سبب اهتمامك بقتل ذلك المخلوق. لكن السيد سيوارت مر بتجارب أدق وأخطر من هذه وخرج منها سالماً.

- ماذا تعني؟

حثت جنيفر راحلتها لتلحق به... فقال لها:

- ألم تعرفي أنه كان جندياً؟... كان... كما يقولون... من المرتزقة! جندي يحارب في أي بلد يدفع له.

- أعرف ما هي المرتزقة. لكنني لم أكن أعرف أنه كان من المرتزقة، متى كان هذا.

- أوه منذ سنوات طويلة.

- قبل أن يلتقي بأبي؟

- اعذريني... لا أعرف شيئاً عن والدك. لكن هذا جرى قبل خمس عشرة سنة. كما أظن.

- لكنه كان دون العشرين من عمره؟

- وإن يكن... الرجل رجل. سواء أكان في العشرين أو الخمسين فهو يبقى قادراً على القتال... هل يريح هذا بالك؟

- ليس كثيراً... أخبرني... متى ستقرر قبول أو رفض تلك الوظيفة في البرازيل؟

وهكذا تابعا رحلتهما وهما يتبادلان أحاديث مختلفة.

وبقيا على هذه الحال كل يوم من أيام الأسبوع... لكن الآنسة كانت ترافقهما أحياناً... وكان غابريال رفيقاً مسلياً أكثر من أبيه... ربما لأنه أصغر منه سناً. وربما لأنه كان يغازلها فتشعر بالسعادة عندما يطريها... على الأقل هناك من يجدها جذابة.

تمر الجبل بقي مراوغاً. وهذا ما كان يحد من مجال استكشافاتهما... صباح أحد الأيام لم يحضر غابريال، في وقته المعتاد فأحست جنيفر بالمرارة من مساعدتها للآنسة نيوبولت على تنظيف الصالون... نزلت إلى النهر لتنعم بمياهه الباردة... فلما عادت أدراجها إلى البيت رأت تشان فعلمت أنّ شيئاً قد جرى.

- لن يأتي غابريال اليوم سنيورينا. والده... احتاجه...

إنهم يضعون سياجاً عند الحدود الغربية... ويطلب منك عذره.

فزفرت جنيفر بارتياح:

- هكذا إذن...

- أنا آسف سنيوريتا. لكنك تفهمين... العمل يأتي أولاً.

- طبعاً... طبعاً سأراه في الغد.

- ربما لا... الباترون قال... إن هذا قد يستغرق عدة أيام.

- الباترون قال هذا؟

كان يجب أن تعرف أن له ضلعاً. فما السبب يا ترى؟ أيظن أن علاقتهما أصبحت وطيدة جداً؟ أيظن أنه حان الوقت لإيقاف علاقتهما؟ أخائف هو من أن تفسد أخلاق أحد «الغوشوس» الأبرياء؟ يأخذه لتسييج الحدود! أليس عنده رجال آخرون؟

فكرة قضائها يوم كامل داخل جدران المنزل جعلتها تحس بالقلق وعدم الراحة...

نظرت بشوق إلى الاسطبل. لا شك في أن العامل الهندي هيأ لها مطيتها استعداداً للخروج... وعليها الآن الذهاب إليه لتقرأ، إنها لن تخرج... ألن تخرج حقاً؟

وتقدمت بضع خطوات باتجاه المنزل لتقول للآنسة إنها ذاهبة، ثم ترددت... فمما لا شك فيه أن العجوز ستمنعها، وإن هي خالفتها ستحطم كل أعراف الانضباط والطاعة. وبما أنها لن تتوقع عودتها قبل الحادية عشرة فلِمَ تخبرها عن امتناع غابريال عن المجيء.

لكن عامل الاسطبل اعترض:

- دوندي ايستا غابريال؟ (أين غابريال).

- لا بأس... سألقاه عند النهر.

لكنه لم يقتنع.

- ولماذا؟

لكن جنيفر لم تنتظر بل لوحت بيدها واعتلت صهوة الفرس وخرجت بها من الاسطبل. تاركة العجوز ينظر إليها بارتياك.

كان النهر قد انخفض كثيراً منذ العاصفة الأخيرة. وهذا يعني أنها قادرة على اجتياز الأماكن الضحلة التي أشار إليها غابريال.

غاصت قدماها في المياه الباردة وهي تعتلي صهوة الفرس... عند الضفة الأخرى كان هناك مجموعات من نبات الخشخاش الأحمر والأقحوان الأبيض، مع بعض الأعشاب العطرية التي تستخدمها عادة الآنسة نيوبولت. وكان العشب أعلى بكثير هنا من سائر الأماكن والماشية التي ترعى هنا لم تلقِ بالاً لها. دفعت جنيفر بفرسها عبر الممر الذي حفرته حوافر الماشية عبر الأجيال.

وأوصلها إلى صخور الغرانيت التي تنبت بينها أشجار تناضل للبقاء في تربة غير عميقة. وإلى اليمين من بعيد بدا لها أطراف السهل المرتفع بين الجبال... لكن تعقلها منعها من الاستسلام إلى التهور. فآخر شيء قد ترغب فيه هو تحدي نيل.

لكن هذا غير صحيح... إنها لا تريد أن تتحداه... لكنها لن تستطيع جذب اهتمامه إليها بطريقة أخرى... عليها أن تهزمه لتحس بعد ذلك باحترام ذاتها.

لما أحست أنها ستتجاوز حدها... نزلت عن مطيتها

فربطتها في بعض الشجيرات. وجلست على صخرة ناعمة حيث تمكنت من الإشراف على منظر الوادي المنتشر أمامها. إن جماله لا يصدق... وكذلك الهدوء هنا... وأحست بوخز الألم عندما فكرت أن هذا المكان، وبعد عدة أشهر، لن يكون منزلها. فمنذ أن غادرت كاترينا المزرعة، تجنبت هذا التفكير... لكن، من المستحيل أن تصدق أن المرأة الإسبانية لم تكن صادقة.

أبعدت عنها هذه الأفكار إلى أخرى تبعث بها اضطراباً أقل. ليلة أمس كان نيل والريكو يتحدثان عن جمع إناث الخيل مع مهورهن... واستمعت باهتمام متمنية أن تنضم إليهما... لكنها تعلم أن ما من مجال لهذا. فهو لن يثق بها... أو بنفسه مطلقاً.

أحست بالاكتئاب... فعلى بعد لا يزيد عن خمسة عشر متراً رأت الحصان الأسود واقفاً... استغراقها في أفكارها منعها من سماع وقع حوافره... لكنه الآن واقف وإن كان متوتراً بعض الشيء بسبب دخيل في منطقة سيطرته.

فتنفست جنيفر:

- أوه... أيها الجميل!

وقفت ببطء، لكنها أثناء وقوفها استدار الحصان إلى جانبه، فتشنّفت أذناه في رأسه... فهمست له:

- اجمد!... مهلاً! لن أؤذيك.

رفعت الفرس البنية رأسها... فصهل الحصان بصوت متكبر متغطرس، تردد صداه بين الصخور. وعلمت جنيفر أن رائحة الفرس جعلته يلحق بها... أطلقت الفرس صيحة

احتجاج. ولأنه شعر أنه لن يتمكن من الغزو استدار، مطلقاً صهيلاً هو أشبه بآهة... واختفى فجأة كما ظهر.

عادت إلى الصخرة تجلس فوقها، وراحت تعبث بالعشب... لقد قال لها انريكو إن الحصان متكبر... وهو على حق... ما هي كلماته بالضبط؟ متكبر كإبليس! ضحكت، فمن يستطيع أن يعرف بالتأكيد مدى تكبر إبليس؟ فأين الكبرياء في الخروج من الجنة طرداً... إنه دون شك ملاك ساقط! وابتسمت... إذن هذه هي التسمية التي ستتخذها له: الملاك الساقط... إنه وصف ينطبق على شخص آخر تعرفه...

ضرب حوافر الفرس على الصخور قطع أفكارها. فقفزت على قدميها لترى أن الفرس، بطريقة ما، تمكنت من الافلات واتبعت الطريق التي سلكها الحصان الأسود... فصاحت بغضب:

- هاي!... أنت!

لكن الفرس كانت مصممة على اللحاق بالحصان... فجأة فقدت فكرة بقائها وحيدة بريقها.

هناك أميال وأميال قبل العودة إلى المنزل... والتفكير بالسير ملأها خوفاً. هي لا تنكر قوة حذائها لكنه لم يكن حذاء ركوب. وقد حذرها غابريال دائماً من وجود الأفاعي في الوادي... ثم أن فكرة اجتياز مجرى النهر وابتلالها حتى العظام لم تعجبها. وخاصة وأنها تصورت ردة فعل الآنسة نيوبولت فيما لو عادت مبللة بالماء.

لكن فكرة الجري وراء الفرس أمر مشكوك فيه. فهي لم تنس السبب الذي جعل نيل يمنع الجميع من الذهاب إلى

الخندق الصخري. وستكون كمن يستدعي الخطر وهي سائرة على قدميها.

وجدت خلف المكان الذي هي فيه خندقاً صخرياً مليئاً بالعشب. فيه واحة خضراء، ويتساقط من بعيد شلال تحفر مياهه طريقها إلى بركة...!

وبرز لسانها فوراً ليرطب شفتيها. ما أشدّ حاجتها إلى أن تغرق وجهها في الماء... لتريح جفاف حلقها بمياهه الباردة. نسيت في غمرة سرورها بالبركة الفرس وهروبها.

ولم يعد للزمن أهمية لديها... فهي ستتأخر في العودة في مطلق الأحوال. فلماذا القلق على دقائق تمضيها في النزول إلى الواحة؟ وربما إذا أحبط سعي الفرس في إيجاد رفيقها، قد تعود...

كان جانبي الوادي الصغير أكثر انحداراً مما اعتقدت. وجدت نفسها من دون قوائم الفرس الثابتة تنزلق معظم الطريق على مؤخرتها. لكنها أخيراً وصلت إلى البركة، فمدت يديها إلى الشلال، عندما فقط شاهدت لون الدم الأحمر يمتزج بالماء، فعلمت أن يديها مخدشتان. فسحبتهما من تحت الماء لتحدق فيهما... كانتا مليئتين بالجروح والخدوش. وقد بدأتا تؤلمانها بعدما زال وقع تخدير الماء البارد.

التفتت إلى المنحدر الذي نزلت منه وأحست بالذعر... كيف ستتمكن من معاودة التسلق... منظر يديها جعلها تحس بالدوار. وعندما تصورت الجهد الذي ستبذله بالتمسّك والشد على ذلك المنحدر القوي، غار قلبها من الإحباط إلى الحضيض.

أمرت نفسها بالهدوء، ثم راحت تراجع بحذر موقفها، إنها تقف تحت قمة الوادي الصغير المنحدر كالخندق تماماً. حيث البركة تكوّن حضناً طبيعياً لتلقي مياه الشلال... وعلى طرف البركة الآخر تتدفق المياه هبوطاً من الخندق، وما من شك إنها ستصل إلى النهر في نهاية الأمر... النهر...

سارع قلبها من وتيرة نبضاته. بالطبع! هنا يكمن الحل! عاجلاً أم آجلاً، هذه الساقية يجب أن تصب في النهر. والمياه عادة لا تصعد إلى الجبل. والمسافة لم تعد تهم، ما دامت لن تستخدم يديها للصعود والتسلق.

كان الوقت قد تجاوز الظهر عندما وصلت إلى نهاية الخندق. ولكن الممر الذي كانت ترجو إيجاده لم يكن سوى شق مظلم، تختفي فيه المياه المتدفقة.

حدقت بأسى وذعر إلى تلك الهوة الضيقة، الزلقة السطح بالطحلب، التي تتدلى من فوقها النباتات المتسلقة... فأدركت أنها حتى إن تمكنت من حشر نفسها في الشق... لن تستطيع القيام بشيء. فهذا وادٍ منغلق، وهو موقف رائع لكمين... إن هذا المكان تحديداً حذر نيل الجميع من سلوكه.

أحست برغبة في الجلوس والبكاء... كان جسدها كله يرتجف، منديلها مشبع بدماء يديها، ومدت يديها لتغسل المنديل بالماء، فتألمت عندما عصرته... على الأقل جروحها تبدو نظيفة. ليتها تملك شيئاً تجففها به.

ماذا إن عجزت عن العودة؟ كيف سيعرفون مكانها؟ هذه المنطقة مليئة بالأخاديد. كيف لهم أن ينجحوا في إيجادها وهم

عجزوا عن إيجاد نمر الجبل. أمعنت النظر فيما يحيطها بذعر، هل يعقل أن تكون هي قد وجدت عرين «الجاكوار»؟

لا فائدة من إطالة التفكير، فأمامها طريق طويل تقطعه وهي الآن ضعيفة واهنة... وعليها الخروج من هذه الوهدة قبل غروب الشمس.

أقسمت بصمت أنها إن خرجت من هذه المحنة سالمة... فلن تعصي أوامر الآنسة نيوبولت مطلقاً.

تدحرج أحجار وصخور فجائي خلفها جعلها تستدير بحدة. حصاة كبيرة تدحرجت من فوق قمة الوهدة ووقفت تحت قدميها... أغمضت عينيها تشهق مذعورة... ففي هذه اللحظات المرعبة، تيقنت أن نمر الجبل وجدها. ومع أنها فتحت فمها لتصرخ... إلا أن صوتها انحبس في حنجرتها.

- جنيفر!

حتى الصوت الذي ناداها كان غير حقيقي في دائرة رعبها... فهي لم تدرك أنه حقيقي إلا بعد أن تكرر النداء... ففتحت عينيها ووجدت نيل يقفز فوق العشب متجهاً إليها.

في البداية ظنته وهماً من جزاء هلوسة... لكن دنوه منها أقنعها أنه هو... وأنه على خلاف ما رأته من قبل... دون حقد... مشعث الشعر، قميصه مفتوح حتى خصره، يتقدم نزولاً عن المنحدر نحوها، ومن خلفه يبدو جواده وجواد انريكو عند قمة الوهدة يمسك بهما رئيس العمال. إذن... إنه صوته الذي سمعت... لا وهماً نسجه خيالها.

- نيل!

الآن، لم تعد في شك من الحقيقة، فمدت يديها نحوه...

لترتمي وتنغمر في اندفاعها نحوه... إلى ذراعيه... وسمعت صوته المعذب:

- يا إلهي! سأقتلك!

● ● ●

١٠ ـ ارحلي

وجهها المغطى بالدموع، دُفن في صدره الناضح عرقاً. لم تستطع التفكير إلا بالنعيم الذي تخلقه ذراعاه وهما تضمانها ثانية، هو لم يحتضنها منذ زمن طويل... أيام وليال طويلة مرت وهي تعتقد أنه يكرهها... وها هي الآن حيث أرادت أن تكون، حيث تعرف أنها تنتمي. لا يهمها إن كانت الطريقة الانفعالية التي يحتضنها بها نابعة من غضب أو من عاطفة. ما يهمها أنه قلق عليها، جسدها المرتجف أخبرها هذا. وحرارة جسده المبلل عرقاً حدّثتها عما عاناه من عذاب. كانت يده على مؤخرة عنقها، اصابعه تتحرك بين خصلات شعرها المبتل... كان يبذل جهداً فائقاً ليسيطر على نفسه... لكن ضربات قلبه العنيفة لم تكن تطاوعه كما يريد. إنه الرجل الذي تحتاجه. إنه الرجل الذي تحبه.

وكأنما أحس بمشاعرها... فتراجع عنها ليقول بخشونة:

ـ إلى أي حدّ تحسينني قادراً على الاحتمال؟

ثم شاهد الدم يملأ صدره، فأمسك بمعصميها. وأدار راحتيها لينظر إليهما... ثم حبس أنفاسه متأوهاً.

ـ يا إلهي! من هنا الدم إذن...!

وأحنى رأسه يقبل مكان الجروح.

ـ نحن... أعني انريكو وأنا... وجدنا بعض الدم على الصخور فوق. فظننا... يا إلهي! لم نكن نعرف بماذا نفكر. جنيفر... ماذا سأفعل بك؟

تعلقت عيناها بقسمات وجهه الحبيب... وهمست:

ـ ما... ماذا... تريد أن تفعل بي؟

فتمتم بخشونة:

ـ لا تسألي... اوه... جنيفر...

وجذبها إليه يعانقها بقسوة. فالعذاب الذي مرا به زاد من حدة مشاعرهما... تعانقا بشوق يائس. فالكبت وكبح المشاعر أطاح بهما الشوق الذي طالما أنكراه. ثم تراجع عنها قليلاً:

ـ عندما لم تعودي... أتعلمين بما أحسست وقتذاك به؟

ـ أنا آسفة... آسفة. لم أشأ بعث القلق إلى أحد. لكن الفرس هربت مني فلم أعرف ماذا أفعل...

ـ أنت لم تعرفي ماذا تفعلين؟ يا إلهي! أما أنا فكدت أجن!

ـ علمت أنك ستغضب...

ـ أغضب... الغضب لا يصف الحالة التي مررت بها... تمنيت أن تكوني بين يدي...

ـ هكذا؟

وتأوه... عيناه المغمضتان تظهران مدى الرغبة التي تحرقه:

ـ لا... بل هكذا... وددت أن أهزك... أخنقك! أي شيء لأمنعك من... تدميري!

فشهقت:

ـ ماذا تعني؟

- اوه... جنيفر... لقد حاولت دفعك إلى كرهي... ولكنني لم أنجح.

- لكنني أحبك نيل!

- أنت تعتقدين هذا... أنت أصغر من أن تعرفي ماذا تريدين...

- أكاد أبلغ الثامنة عشرة.

- تكادين؟ جنيفر... الثامنة عشرة ليست بالعمر المديد. أنت لم تفعلي شيئاً في حياتك بعد... لم تشاهدي شيئاً من الدنيا، عشت حياتك في ديرا ولن يكون عدلاً... أن أفعل ما... ما تدعني غريزتي إليه.

فسألته هامسة بأنفاس مقطوعة:

- وما هو؟

- تلك الليلة... في غرفتي... أردتك رغم علمي بأنني أخطىء... ومقاطعة الآنسة تيوبولت لنا نعمة من السماء.

- بالنسبة لك؟

- لا... بل لك. فلو نمت معك، لما قدرت على تركك تذهبين.

- تتركني أذهب؟

- اسمعي...! كما قلت لك أنت صغيرة جداً! أنا أكبر منك سناً... أمضيت عمري في تجوال دائم، كنت جزءاً من الحياة... وقد تزوجت سابقاً... وإن كان منذ مدة بعيدة جداً.

أحست بالصدمة... فسألته بشفتين مرتجفتين:

- أكان هذا قبل أن تكون في المرتزقة؟

- ومن قال لك هذا؟ غابريال... أليس كذلك؟ غابريال المثالي... بشبابه، وجماله، وفتنته... وإعجابه الخفي بك!

فجأة أحست أنها فهمته، فسألته، وهي لا تصدق:

- أنت تغار؟ نيل... أنت تغار من غابريال؟

قسماته المتجهمة كشفت عن سخرية ذاتية:

- أجل... جنون، أليس كذلك؟ رجل في مثل عمري يغار على تلميذة!

قلفت ذراعيها حول عنقه، تضحك وتبكي معاً:

- اوه نيل! لا يجب أن تغار من أحد. ألا تعلم هذا؟ لست أهتم بغابريال... أنا أحبك أنت! وأنت وحدك! ضمني إليك... ضمني! لا أطيق بعدك عني.

قضمها بداية، ثم تراجع... يحرر نفسه كرهاً ليتأملها:

- ماذا سأفعل بك؟ لا استطيع تركك تبقين هنا، وأنا أحس كما أحس الآن... فلن يمضي وقت طويل قبل أن... أنه الحل الوحيد... ولقد فكرت فيه منذ زمن. يجب أن أعيدك إلى انكلترا.

- لا...

- بلى... فهذا هو الشيء الذي يجب أن أقوم به... وذلك لسلامة عقلي! ولتكن فترة استراحة... لن تدوم إلى الأبد.

- ماذا تعني؟ أنت تعرف أنني ببلوغي الثامنة عشرة... ستنتهي مسؤوليتك عني.

- أتظنين هذا؟ أتظنين أنك عندما تبلغين ذلك العمر ستتغير علاقتنا؟

- حسناً... لا يمكنك الاستمرار في إعالتي... بعد أن

أبلغ الثامنة عشرة.

- لم لا؟

- لأن... اوه... لأنه لا يمكنك. وأنت تعلم أنني يجب أن أجد عملاً...

- عملاً؟ أتظنين أن بلوغك الثامنة عشرة يقطع كل الروابط بيننا؟ يا إلهي... هل قلت أنا هذا؟ هل أعطيتك هذا الانطباع؟

والتفت نحو رئيس عماله:

- لن نستطيع الكلام هنا أكثر من هذا... لقد أدنت نفسي كفاية أمام انريكو بعناقي لك... و...

- أدنت نفسك؟

- أجل انريكو رجل متدين وإن كان لا يظهر ذلك لكنه يعتبرني كبير السن بالنسبة لك. وكان يظن أنه وجد الحل الأمثل...

- إذن كانت فكرته... استبدالك بغابريال.

- كانت فكرة جيدة... لكن للأسف لم أتقبلها. ربما سيتعاطف معي إذا عرف ما تفعلينه بي.

- اوه... نيل!

- ابقي بعيدة عني، لا تجعليني احتقر نفسي أكثر مما أنا عليه.

ولف ذراعه حول خصرها ليساعدها على تسلق المنحدر إلى حيث يقف انريكو، في أعلى الوهدة. فنظرت إلى الخلف وأصابتها الرعدة... لكن انريكو استرعى انتباهها بسؤاله:

- ماذا حدث؟

فأمسك نيل برج حصانه وتنهد:

- لقد هربت الفرس.

وشرحت جنيفر:

- لقد رأيت الحصان الأسود. فقد نزلت لأستريح وأخالني لم أربط الفرس جيداً.

فصاح انريكو:

- هاه... لو كان غابريال معك...

فقاطعه نيل:

- لكنه لم يكن معها... هيا بنا قبل أن تصيب الهستيريا الآنسة نيوبولت.

تسلقت جنيفر مطية نيل لتجلس أمامه. ولحق بهما انريكو قائلاً:

- أليس استقبالاً رائعاً لكاترينا...؟ لكن وجودها كان خيراً لأنها ستواسي العجوز المسكينة.

حتى تلك اللحظة لم تتساءل جنيفر عن معرفته بغيابها... لكن كلمات انريكو، أفهمتها ما جرى. فعندما خرج نيل صباحاً لم تكن وجهته الخروج مع الرجال كما تصورت... بل الذهاب لإحضار كاترينا.

وكأن نيل انزعج من كلام رئيس عماله... فقال لها بهدوء:

- والدة كاترينا تحسنت كثيراً. فأرسلت رسالة بالأمس تقول فيها إنها مستعدة للعودة إلى البيت...

العودة إلى البيت! مزقت الكلمات دفاعات جنيفر المشتتة الآن، وفتتها إرباً إرباً بمعانيها الحميمة... العودة إلى البيت! بيت كاترينا. لا بيتها... ولن يكون بيتها مطلقاً! بعد أن وصلت كاترينا قرر أن يبعدها ومعاني كلماته واضحة كل

الوضوح.

عندما تقدمت الآنسة نيوبولت لمقابلتهم، انتزعت جنيفر نفسها من ذراعي نيل وارتمت بين ذراعي المرأة العجوز التي قادتها دون سؤال إلى غرفتها.

لكن... في الحمام والباب موصد. أطلقت الآنسة العنان لمشاعرها:

- كنت عرضة للموت! كنت تعرفين بما سأحس به لو عرفت المكان الذي ستقصدينه... ولكنك لم تهتمي!

- بل أهتم... لكن... لكن...

- لكن كان عليك إثبات استقلاليتك للسيد ستيوارت! اوه... جنيفر! كان يجب أن تسمعي اللغة التي تكلم بها معي عندما علم باختفائك!

- ولماذا؟ ماذا قال؟ كان هذا بعد أن أحضر كاترينا؟

- إنه لم يحضر السيدة باترفاه... بل انريكو... لقد عاد السيد ستيوارت إلى المنزل ليصحبك في نزهة فاكتشف اختفاءك عندها سيطر عليه الخوف وفي هذا الوقت وصلت السيدة باترفاه.

- اوه آنسة نيوبولت لو كنت أعلم. لو كنت أعلم!

- حسناً... الآن عرفت ما هي المشاكل التي تضيفينها إلى كاهله وهذا ليس سهلاً لك.

- وماذا تقولين لو أخبرتك أنني واقعة في حبه؟

ساد صمت طويل بحثت خلاله الآنسة نيوبولت عن مرهم مضاد للالتهابات، ثم فتحت رباطاً للجرح وقالت:

- سأقول إنني ارتبت بأن شيئاً ما يجري... هل نمت معه؟

صعقتها كلمات الآنسة فهي لم تتوقع منها مثل هذه الصراحة. فأجابت متلعثمة:

- أنا... لا... لا. لم أنم معه... إنه... يعتبرني طفلة!

- إنه على حق... إذن؟ ماذا ينوي أن يفعل إزاء هذا؟

- يريد أن يعيدني إلى انكلترا... مدة ستة أشهر.

فرفعت الآنسة حاجبيها:

- ستة أشهر... اقتراح ممتاز.

فصرخت جنيفر متألمة:

- اقتراح ممتاز؟ إنه اقتراح يائس... وهو يعتقد أنني لن أعود هكذا هو الأمر. يعتقد أنني بعودتي إلى لندن أنساه.

ردت الآنسة برد عملي، وهي تضع المرهم على الجرح قبل أن تلفه على يدها:

- قد يحدث هذا.

لكن الفتاة حدقت فيها والدموع تملأ عينيها... فأضافت:

- ثم... قد لا يحدث... وأظنه يؤمن بهذا.

فأخفضت جنيفر رأسها:

- لست... أدري.

- اوه... هيا... أنت تعرفين شيئاً.

- لا... إنه يريدني... هذا ما أعرفه. أظنه بحاجة إلي. لكن... الحب... لم يقل قط إنه يحبني.

فأطرقت الآنسة نيوبولت، وشدت الرباط بعناية خبير.

- تذكري يا جنيفر. من الصعب على رجل مثله أن يعترف بهذا الأمر. أعتي، إنه ليس ولداً... وليتك تفهمين هذا.

فارتجفت شفتا جنيفر:

- تبدين وكأنك... كثيرة التجربة. ومع ذلك لم تتزوجي قط.

شغلت الآنسة نفسها بعملها عدة لحظات. ثم رفعت رأسها:

- ماذا ستقولين لو أخبرتك أن سبب عدم زواجي أنني أحببت رجلاً متزوجاً؟

فشهقت جنيفر:

- هل هذا صحيح؟

- في الواقع... صحيح. إنه كالسيد ستيوارت... كان أكبر مني بكثير.

- هل أحبك؟

فابتسمت:

- هذا ما قاله لي. وربما كان صادقاً، بطريقة ما. لكنه كان يحب سمعته أكثر مني.

فصاحت جنيفر:

- اللورد غاردنر؟

كان اللون الأحمر الخفيف الذي اكتسح وجه الآنسة خير إجابة. فسارعت جنيفر للاعتذار:

- اوه... آسفة آنسة نيوبولت! آسفة جداً!

- لا تأسفي يا عزيزتي... لقد انتهى الأمر منذ سنوات بعيدة... دايفد الآن في الثمانين من عمره وهو بعيد كل البعد عن التفكير بأمور كهذه.

- وهل... هل...

لم تجد جنيفر الشجاعة لتلفظ الكلمة. فابتسمت الآنسة

نيوبولت وأكملت سؤالها:

- هل كان بيننا علاقة؟ أعتقد أنني لا يجب أن أقول لك... صحيح؟

صمتت... ثم لاحظت لهفة الفتاة... فأكملت:

- حسناً... كان بيننا علاقة. لا أقول إنها تشبه العلاقة التي بينك وبين السيد ستيوارت... فأنا لم أكن أتجول بسروال ضيق ولا قميص يكشف كل خبايا صدري... لكنني كنت أسمح له... بعناقي... وقد ذهبنا مرة للسباحة معاً.

- أكنت ستتزوجينه إن استطعت؟

فتنهدت:

- لو طلب مني.

- ليل كان متزوجاً... ولكن ذلك أمر انتهى منذ زمن طويل.

أكملت الآنسة عملها، ونظرت إلى الضمادة.

- هاك... هكذا أفضل.

- أبدو كالمومياء... ماذا سأفعل؟

- ماذا يمكنك أن تفعلي؟ افعلي ما يقوله. عودي إلى انكلترا... امضي الصيف هناك. وإذا كنت تحبينه فعلاً... عودي، وإذا كان يحبك... فستجديه بانتظارك.

- لكن... ماذا لو لم يكن؟

فهزت الآنسة كتفيها:

- أليس من الأفضل أن تعرفي؟

لم ترغب جنيفر في تناول الغداء... بل أمضت طوال بعد الظهر مستلقية في الفراش... تشعر بالسقم والمرض حتى

معرفتها بأن نيل ذهب إلى بورتونوفا لم يخرجها من إحباطها. وصل الطبيب برفقة الآنسة نيوبولت إلى غرفتها، وقال لها:

- إذا لم تهتمي بنفسك سنيوريتا، فاهتمي على الأقل بمن يهتم بك. السنيور ستيوارت قلق عليك جداً. هل فقدت كمية كبيرة من الدماء؟

فتلوت جنيفر فوق السرير:

- ليس كثيراً. لم يكن هناك حاجة إلى مجيئك... حقاً سنيور. لقد نظفت الآنسة نيوبولت الجروح وضمدتها.

- من حسن الحظ أن الآنسة تعرف مخاطر جروح كهذه فالكزاز مرض خطير يصيب مثل هذه الجروح سنيوريتا... وعليك أن تتذكري هذا.

الحقنة التي تبعت لم تكن مريحة بل تركت جنيفر تحس أنها على وشك البكاء... ماذا يفعل نيل الآن؟ هل ستراه اليوم؟ أم أنها مضطرة لتعاني من مقت وازدراء كاترينا؟

عندما نزلت إلى الطابق الأرضي، وجدت نيل يقف في الردهة يحدق في الظلام ويداه خلف ظهره... فتقدمت منه بقلب خافق فالتفت إليها فوراً وأمسك يديها بيديه القويتين الباردتين.

- حسناً... كيف تشعرين؟

- متألمة! وأنت؟

لم يرد على سؤالها بل سألها:

- هل غضبت منك الآنسة نيوبولت كثيراً؟

- كانت قلقة بسبب ما قلته لها. لماذا لم تقل لي إن كاترينا ستعود اليوم؟

- كنت سأخبرك هذا الصباح... ألم تقل لك إنني جئت لأصطحبك في نزهة.

- أجل... آسفة يا نيل... اوه يبدو أنني دائماً أقول هذا لك!

- ألست تقولينها...؟ بداك... هل ستكونان على ما يرام.

- طبعاً فالجروح ليست بليغة... نيل، بشأن السفر إلى الكليتر؟

فترك يديها ووضع يديه في جيبي سرواله.

- نعم...

- إذا... إذا كان هذا... ما تريدني أن أقوم به... فأنا على استعداد.

وسادهما صمت متوتر قطعه بقوله:

- هكذا إذن. هل عليّ أن أشكر الآنسة نيوبولت على هذا؟

وكأنما أصيب بخيبة أمل لإذعانها. فحدقت فيه جنيفر بحيرة. محاولة قراءة المغازي السوداء في تعبيرات وجهه... لم سمعت صوتاً لن تنساه أبداً يقول بنعومة:

- آه... أتشعر سنيوريتا أنها أفضل حالاً؟ ما أروع رؤيتك معافاة. آنسة هانت!... ما كنت أرغب في أن يفوتك العشاء في أول أمسية أعود فيها إلى المنزل.

بعد انتهاء العشاء، طلب اتريكو التحدث إلى سيده... فوافق متردداً، تاركاً جنيفر وحيدة مع كاترينا. ذلك أن الآنسة نيوبولت توجهت إلى الصالون لتحضر الشطرنج. فدفعت جنيفر كرسيها استعداداً للوقوف. لكن كاترينا سحبت رسالة من داخل

قميصها ورمتها لها.

- خذي هذه... لقد جمعت بريد نيل قبل عودتي إلى المنزل... وهذه ستهمك.

- تهمني؟... ولماذا... اوه!

صمتت... لقد تعرفت إلى الخط الصغير المرتب، الذي لا يمكن أن تخطىء أناقته... كما لن تخطىء مغلف الدير.

ونظرت إليها كاترينا بمكر:

- أرى أنك عرفت المكان الذي أرسلت منه هذه الرسالة. ربما تتساءلين لماذا يبعث الدير رسالة إلى وصيك...

فقطبت جنيفر وصاحت بها:

- وكيف عرفت أنها من الدير؟ الرسالة موجهة إلى نيل، وهي مختومة. هل... هل فتحتها؟

- يجب أن تشكريني سنيوريتا... لأنني عرفت ما بداخلها وأنا واثقة أن نيل سيكون مهتماً جداً لو عرف أن والدك أراد أن تعودي إلى الدير بعد وفاته.

فابيض وجه جنيفر من الشحوب:

- ماذا تعنين؟

- أعني سنيوريتا، أن الراهبات الطيبات في الدير لا يعرفن أي شيء عن وصاية نيل.

أجبرت جنيفر نفسها على البقاء هادئة، ودافعت عن نفسها:

- ولماذا يعرفن؟ لا علاقة لهن...

وتحول وجه كاترينا إلى قناع مرعب وهي تقاطعها:

- اوه... بل لهن علاقة سنيوريتا. آتربن... لقد اتصل والدك بالراهبات الطيبات قبل يومين... أتسمعين: قبل

يومين... من موته، ليعلمهن برغباته الأخيرة، وليقول لهن إن محاميه سيتصل بهن.

وأخذت جنيفر ترتجف، لكنها لم تجرؤ على إظهار صدمتها:

- لا أصدقك... ولماذا أصدقك؟

- ولماذا أكذب... افتحي الرسالة واقرئيها.

- لكنه مرسل إلى نيل.

- أجل... هل تتصورين ما ستكون عليه ردة فعله عندما يقرأ الرسالة. عندما يعرف أنك خدعته؟ اوه سنيوريتا، لقد فكرت ملياً في الأمر. فأنت من كتب الرسالة إلى المحامي... وانخلت نيل وصياً لك. لماذا... أنا دهشة؟ أنت لم تريه من قبل. هل كنت يائسة جداً للحصول على رجل؟ سنيوريتا؟

ووقعت كرسي جنيفر على الأرض وهي تقف بحدة:

- لا تجرؤي مطلقاً على قول مثل هذا لي. فأنت لن تفهمي أبداً...

فسخرت منها كاترينا:

- وهل تظنين نيل سيفهم؟

- لا أعرف...

- إذن دعيني أخبرك أنه... لن يفهم! ما من رجل يحب أن يُخدع، خاصة من قبل فتاة صغيرة تصلح أن تكون ابنة له.

وضعت جنيفر يدها على رأسها... إنه يدور... أهي حقنة الطبيب المسؤولة عن هذا الدوار؟ أم عدم تناولها الطعام طوال النهار؟ أحست بالغثيان والارتباك... كاترينا تتفوه بما خافت أن ينكشف منذ زمان طويل.

ـ لماذا تسلميني هذه الرسالة؟ لماذا لا تسلمينها لنيل؟

فوقفت كاترينا ووضعت يديها فوق الطاولة:

ـ لدي أسبابي. أريدك أن ترحلي من هنا ستيورينا. ولست أهتم بالوسائل التي قد استخدمها لتحقيق هذا الهدف!

ـ لست... أفهمك.

ـ سأشرح لك، كما قلت... نيل لن تعجبه فكرة استغلالك له. هل تتصورين ما قد يشعر به لو أن رجال... الغاوتشوز... علموا أنك دخلت منزله عبر الخداع؟ سيكون... كيف تقولينها؟ مادة للضحك... أتظنينه سيرضى بهذا؟

وعلمت جنيفر أن كاترينا الآن سيدة الموقف فردت بانكسار:

ـ لا!

ـ لا... هذا ما أراه. لذا لا أرى حاجة إلى أن يرى هو أو غيره هذه الرسالة. فإذا وافقت على الرحيل دون ضجة. اتلف الرسالة... وعندما تصلين إلى انكلترا تشرحين الموقف للراهبات.

ـ أتبتزينني؟ هل ستفضحين أمري إن لم أوافق على الرحيل؟ ألست خائفة مما سيقوله نيل عندما يعرف أنك تقرأين بريده؟

فهزت كاترينا كتفيها:

ـ سيغضب... وإن يكن؟ إنه بحاجة إلي هنا. ومن غير الممكن أن يصرفني بسبب أمر تافه كهذا...؟

ـ ماذا... لو رفض رحيلي؟

التوى فم كاترينا بشكل بشع:

ـ لقد شاهدت الدم على ثيابه اليوم... وسمعت ما قلته له في الردهة منذ قليل، ولا أظنه سيعترض طريقك.

فوضعت جنيفر يدها على معدتها:

ـ أتظنين أن بإمكانك الحصول على كل شيء؟ لكن ماذا ستفعلين لو... لو علمت؟

فردت كاترينا ساخرة:

ـ سأستقبل وزوجي الغرباء دائماً في منزلنا.

فشهقت جنيفر... وأكملت كاترينا ببرود:

ـ اوه... صحيح... سيتزوجني ستيورينا. حتى لو اضطررت إلى أن أحمل طفله... إنه مهمل في مثل هذه الأمور... ويعتمد عليّ تماماً فيها. هل تفهمين؟

وفهمت جنيفر... فهمت جيداً جداً. وهذا الفهم سلب منها القوة والقدرة على ترك الغرفة... لكن... يجب أن تترك الغرفة... بل يجب أن تترك المزرعة... مبتعدة عن كاترينا... عن سان غيريال...

والأهم أن تبتعد عنه. عن نيل.

● ● ●

١١ ـ اللقاء الأخير

المنزل المفروش، الذي استأجرته الآنسة نيوبولت، في ساحة مونتي يقع في مبنى طويل وضيق، واجهته تمتد إلى السماء. كان كبيراً أكثر من أي شيء تصورته جنيفر. لكن الآنسة أبلغتها أن نيل أصر على راحتهما... درجات السلم العريضة إلى جانب الباب كانت تقود إلى شقة في القبو تسكنها مديرة المنزل، السيدة بيرلي، وزوجها... المنزل حقاً كبير بالنسبة لامرأتين تعيشان وحدهما... لكن الآنسة نيوبولت قالت إن الشقق أماكن فارغة من الحيوية.

كان في المنزل مكتبة قديمة ضخمة، دفنت جنيفر نفسها فيها منذ أن وصلت إلى هذا البيت وقد فشلت كل محاولات الآنسة نيوبولت في إقناعها بالخروج للتمتع بشمس الربيع.

منذ وافقت على مغادرة المزرعة، تحركت الأمور بسرعة. فلم تعرف من أعدّ لهما مسيرة العودة في نهاية الأسبوع. لكن نيل لم يظهر اهتماماً بالأمر كله. فكاترينا هي من أبلغتها أن تذاكر السفر قد حجزت لهما للسفر يوم الجمعة صباحاً، وأن اتريكو هو من سيوصلهما إلى مطار فالفيدرا.

مساء الخميس، طلب نيل من الآنسة نيوبولت التحدث إليه في مكتبته بعد انتهاء العشاء. فبقيت جنيفر وحدها تشعر بأنها

بالنسبة له ليست سوى طفلة، لا تستحق أن تشارك الكبار في أحاديثهما الخاصة وهو سيعطي الآنسة تعليماته للعناية بالطفلة. تلك الليلة أوت إلى فراشها دون أن تراه ثانية.

أما وداعها له فكان رسمياً أكثر مما يجب... فقد وصل إلى غرفة الطعام اثناء تناولها الفطور وبدا متوتراً لأنه وجدها باكراً هناك... ربما ظنها ستنهار... حسناً لن تنهار... ولن ترضي غروره.

بعد أن وضع اتريكو حقائبهما في السيارة، ودعته الآنسة نيوبولت... مدت جنيفر يدها إليه تصافحه. فشاهدت الغضب في عينيه... وكان وداعهما وداع الغرباء... كانا غريبين ليس بينهما صداقة.

في البداية... بكت كثيراً... خاصة عندما كانت تدفن وجهها في وسادتها... لكن تدريجياً تلاشى ضعفها فحل محله نوع من القساوة، والازدراء الساخر بقلة نضوجها. وهذا ما أعطاها القوة للاستمرار. نيل كان تجربة في حياتها... أول تجربة لها... أول وآخر من ستخلى له عن قلبها.

عند اتخاذها هذا القرار، قررت أن تتمتع بحياتها من جديد. لكن حينما انتهى الشهر الأول... أحست بالملل. خروجها مع الآنسة نيوبولت إلى المتاحف، والمسارح أضجرها، كما أضجرها أن تمضي بقية حياتها سعياً وراء سعادة زائفة. وما أخافها محاولاتها الدؤوب إلى ملء فراغ أيامها لتمنع نفسها عن التفكير بنيل. وهذه ليست وسيلة ناجحة للعيش.

عندها فكرت في البحث عن وظيفة... لكن لماذا؟ حديث طويل في الموضوع مع الآنسة نيوبولت لم يكن مرضياً. فالآنسة

العجوز تعتقد أن على جنيفر أن تمنح نفسها مزيداً من الوقت قبل أن ترمي نفسها في شيء ملزم مثل المهنة. فلتنتظر حتى انتهاء الصيف... فماذا حدث بالنسبة لتصميمها على العودة إلى نيل...؟ لكن الآنسة بالتأكيد لم تكن تعرف شيئاً عما حدث بين جنيفر وكاترينا.

إيجار المنزل مدة ستة أشهر دفعه نيل، لكن جنيفر قررت أنها حالما تستلم وظيفة ستقترح على الآنسة نيوبولت الانتقال إلى شقة مناسبة تختارها بنفسها، إنها تعرف أن نيل يدفع راتب الآنسة كذلك... ولم تكن متأكدة تماماً مما يمكن لهذه السيدة أن تفعل عندما تتخلص هي من وصيها. في الوقت الحاضر يجب أن تقبل كرمه. لكن بقي لها ذلك الرأسمال الصغير الذي ولده لها بيع منزل أبيها ولا بد أن هذا سيوفر لها فرش شقة صغيرة عند الحاجة.

لم يكن إيجاد الوظيفة بالأمر السهل خاصة وهي لا تملك مؤهلات فالعمل المكتبي كله بحاجة إلى اتقان تام باللغة ومعرفة جيدة بالطبع على الآلة الكاتبة، وهذه أمور لا تمتلكها جنيفر. والأعمال الأقل شأناً ليست بذات أجر مرتفع وقد أدركت أخيراً أنها إذا كانت تريد وظيفة تكسبها راتباً يخولها العيش عيشة لائقة، عليها العودة إلى المدرسة وخوض الامتحانات. ولكن كيف السبيل إلى ذلك والوقت صيفاً؟

وأخيراً قبلت وظيفة ساقية في مقهى... لم يكن المقهى حديث الطراز وكان صاحبه يونانياً سهل المنظر يدعى ستافرو... لكن الوظيفة على الأقل تعني أن هناك مكاناً تلجأ إليه في ساعات النهار الطويلة.

أحست الآنسة نيوبولت بالذعر، فهي لم تتصور أن جنيفر قد تقبل بعمل كهذا.

ـ ماذا سيكون موقف السيد ستيوارت عندما يعرف أنني أعيش هنا برخاء وباذخ بينما أنت تمضين أيامك في ذلك المحيط غير الصحي؟

ـ في الواقع لا أهتم بما يفكر فيه السيد ستيوارت... أنا أفضل أن لا تخبريه.

كانت تعرف أن الآنسة نيوبولت مضطرة لكتابة تقرير اسبوعي لمخدومها. ولطالما تساءلت عما تكتبه. أمّا الآن فهي تفضل أن يبقى موضوع عملها مكتوماً.

سألتها الآنسة نيوبولت:

ـ جنيفر أتقولين إنك قد غيرت رأيك؟

ـ وماذا لو فعلت؟

ـ لن أصدقك، بالله يا فتاة! لقد استحوذ على لبك حب ذلك الرجل... وقد رأيت ذلك بوضوح! أنا لا أفهم ما تحاولين فعله؟

ـ ليس عليك أن تفهمي سوى أن الأمر انتهى... إنه لا يريدني... ولم يردني يوماً. ما كنت إلا تسلية له اثناء غياب كاترينا.

ـ أتؤمنين بهذا؟

ـ اؤمن به... أصدقه... ليتك تفهمين...

ـ أفهم؟ وماذا هناك لأفهم؟

ـ تفهمين أمر كاترينا...

ـ ماذا عنها؟

- إن... نيل سيتزوجها.

- أشك كثيراً في هذا... ولو كان يريد الزواج منها لفعل هذا منذ زمن.

- حسناً... هي تريد الزواج منه.

- هل لي أن أذكرك بأنني أنا كذلك أردت الزواج من اللورد غاردنر.

- ولكن... لو... حملت...

- كاترينا ليست حاملاً.

- لا... ولكنها قد تحمل... إذا تركت الأمر يحدث...

- أنت تلمحين إلى أن السيد ستيوارت قد يكون مسؤولاً عن حملها؟

- أجل.

- لم أسمع بشيء خيالي كهذا! هل تصدقين فعلاً أن رجلا عرك الحياة كالسيد ستيوارت سيترك شيئاً كهذا يحدث إن لم يكن يشأ ذلك.

فنظرت إليها جنيفر وشفتاها ترتجفان:

- إذن أنت تعترفين أنهما يتشاركان الفراش.

- أنا لم أقل هذا. ولا أقول إنهما لم يقوما بذلك في الماضي... من الواضح أنها راغبة... والسيد ستيوارت رجل على كل الأحوال.

هطلت الدموع على وجه جنيفر:

- اووه آنسة نيوبولت... ليتك فقط على حق!

- يا عزيزتي... أنت بكل تأكيد لن تدعي امرأة مثل كاترينا تمنعك من اكتشاف الحقيقة بنفسك؟

- وكيف؟

- عودي في نهاية الصيف وقابلي نيل... قومي بهذا على الأقل!

فركت جنيفر وجنتيها بيديها... ثم قالت:

- أنت لا تعرفين شيئاً. لقد كذبت على نيل. طوال فترة إقامتي في سان غبريال كنت أعيش في كذبة.

فقطبت الآنسة:

- تابعي...

- حسناً... والدي لم يكتب تلك الرسالة ليطلب من نيل أن يكون وصياً علي... بل أنا من كتبتها.

- أنت؟

- أجل.

شرحت لها بألم مرير الموضوع برمته دون أن تختلق عذراً لتصرفاتها:

- لم أكن أريد العودة إلى الدير... أردت أن أكون حرة.

- لماذا لم تخبري نيل... أنا واثقة أنه كان سيتفهم دوافعك.

- لا... لقد وصلت رسالة، وكانت كاترينا من أحضرها يوم عودتها. كانت من الدير... لا بد أن الراهبات اتصلن بمحامي والدي. وعلمن أنه مات وأنني أعيش في سان فيتوريا. فكتبن له، ليقلن له إن والدي اتصل بهن ليطلب منهن رعايتي... بعد موته.

- ومن قال لك هذا؟

- كاترينا فتحت الرسالة... وأرتني إياها، لكنها أخفتها

عنه.

- وأين تلك الرسالة الآن؟

- لا بد أن كاترينا أتلفتها... لست أدري... لم أشاهدها بعد ذلك.

بدت الآنسة نيوبولت تمعن التفكير فسألتها جنيفر:

- هل لك أن تتصوري ردة فعله لو عرف الحقيقة؟ إنه لم يردني، كان يرفض أن أذهب إلى سان غبريال. وأنت تعرفين هذا. ولو عرف أنني تعمدت خداعه...

- ومع ذلك فأنا أعتقد أنك كان يجب أن تخبريه. وإذا كنت لا تنوين أصلاً العودة... فماذا ستخسرين؟

فهزت رأسها:

- لا... لا... لا استطيع فعل هذا.

- لماذا؟

- هددتني كاترينا بنشر الرسالة بين الجميع إذا لم أغادر المزرعة. وقالت إنه سيكره أن يظهر بمظهر الغبي أمام الجميع.

- يا لها من شريرة خبيثة! لا أفهم لماذا استخدمها أصلاً مديرة لمنزله.

- إنها أرملة... قلة من النساء قد يرغبن في العيش بعيداً عن المدينة.

- ومع ذلك يستحق أن يعرف الحقيقة. ربما يجب علي...

- لا... لا تفعلي شيئاً. فهذا أمر بيني وبينه فقط ومهما حدث يجب أن أهتم به بنفسي.

لم يمض اسبوع على هذا الحديث، حتى حضر زائر غير متوقع إلى المقهى حيث تعمل جنيفر... وسمعت صوتاً مألوفاً

يأتيها من وراء ظهرها يقول:

- بونوس دياس سنيوريتا (نهارك سعيد) كومو استاتوسدى؟ (كيف حالك).

فاستدارت وهي لا تكاد تصدق أن غابريال يقف أمامها.

- غابريال... ماذا تفعل هنا...؟ يا الله! هل لديك أخبار سيئة؟ هل حدث شيء؟ نيل بخير؟

- لا... لا ونعم. وهذا يجيب عن سؤالك أما سبب وجودي هنا فهو رؤيتك طبعاً.

- لكن كيف وجدتني؟ وماذا تفعل في لندن؟

فابتسم غابريال:

- لن نستطيع الحديث هنا، وسط المقهى... هل لنا أن نتغدى معاً؟

- ولكن وقت الغداء وقت عملنا الجدي. قد أتعشى معك.

فرد غابريال بأسى:

- هذا مستحيل. فأنا في طريقي إلى روما. وعليّ السفر على طائرة المساء. لم أكن أعلم إنك تعملين... نيل لم يخبرني.

- إنه لا يعلم... اوه غابريال! لو كنت أعلم أنك قادم!

- سي!... أعلم ما سأفعل... سأتناول الغداء هنا... ثم من وقت إلى آخر ستتحدث.

وكان هذا حل مرضي... بل هو أفضل ما يمكن أن يفعلاه. وقد بقيت جنيفر مشغولة باستمرار... لكن بين الحين والآخر، كانت تتمكن من تبادل بضع كلمات معه.

علمت أن غابريال قد اتبع نصيحة أبيه فوافق على العمل

في مؤسسة جاكسون. ولأن للمؤسسة فرعاً في روما، أرسلته كي يتعلم الطرق الأوروبية في تطبيق العلوم الهندسية مدة ثلاثة أشهر. وقد توقف في لندن لرؤيتها بناء على طلب والده.

لم يكن الحديث عن نيل سهلاً إذ كان من الصعب طرح الاسئلة التي تريدها... دون فضح مشاعرها. لكن بدا لها من كلامه أن الوضع في المزرعة عادي. على الأقل علمت أنه لم يتزوج... وبإمكانها الآن التفكير بالعودة إلى هناك، حتى وإن كانت الفرص لهذا ضئيلة. نيل لم يكتب لها قط ولا بد أنه يعرف أنها لن تستطيع العودة دون دعوة منه.

شهر حزيران من الأشهر الحارة في لندن. لذا كانت في جو المقهى الخانق تشعر بأن قواها تخف عندما تعود إلى المنزل. فلم تجد قدرة للبحث عن شقة... معرفتها بأن الإيجار ستنتهي مدته بعد أقل من ثلاثة أشهر ملأ أعصابها توتراً... لن تستطيع دفعه. ولو استخدمت المال الذي ورثته عن أبيها.

أمامها مشاكل كثيرة. وكلها دون حل. وربما كان من الأجدى لها لو بقيت في الدير... عندها لما وقع عليها هذا العبء كله. وربما الأفضل أن تكتب إلى الراهبات لتطلب منهن استقبالها من جديد.

في أحد أيام حزيران الأخيرة... استغرقت جنيفر في النوم. وكانت الساعة قد تجاوزت الثامنة والنصف عندما نزلت إلى الطابق الأرضي. فقابلت رجلاً... فتحت فمها لتكلم الرجل فلاحظت أن هذا الشعر الأسود الكثيف، والبشرة المحروقة ليست لزوج مديرة المنزل... كما أن البذلة الفاخرة التي يرتديها، لا يرتديها رجل في الستين من عمره. كان رجلاً

عريض المنكبين جسده بادي العضلات يتحرك برشاقة.

لم تستطع سحب نظرها عنه. وأحست بمعدن سياج السلم يحفر راحة يدها... عندها فقط علمت أنها تجمّدت في مكانها. وتسلق نيل السلم السفلي ليقف أمامها... فأدركت أنها ما زالت تتذكر كل خط من خطوط وجهه، كل التفصيلات الجميلة الدقيقة. آه ليته يتكلم... ليته يقول شيئاً... أي شيء... يخبرها عن سبب وجوده هنا... وإن كان وحده... لاحظت بقلق أيضاً إنه تعب، وأنه خسر القليل من وزنه. ومع ذلك بقي هو الرجل الوحيد القادر على إرسال الدم حاراً داخل شرايينها، أو على تحويل عظامها إلى سائل.

وأخيراً قال:

ـ لقد استيقظت أخيراً.

ـ في الواقع لقد تأخرت. عادة أخرج من المنزل قبل هذا الوقت بكثير.

وضع نيل قدمه على أول السلم الذي تقف عليه:

ـ اوه... أجل. عملك الشهير في المقهى! لم أنس هذا!

فشهقت:

ـ وكيف عرفت انني أعمل؟ اوه فهمت... الآنسة نيوبولت أخبرتك... لكنها وعدتني...

ـ الآنسة نيوبولت لم تخبرني شيئاً. مع أنني كنت أترقب منها ذلك.

فتنحت إلى جانب السلم وأشارت إليه ليصعد:

ـ حسناً... إذا كان هذا ما جئت لأجله...

تنحى بدوره إلى الاتجاه نفسه ليسد عليها طريقها:

ـ لا... ليس هذا سبب مجيئي. هل لنا أن ندخل إلى الداخل؟

فتنفست بحدة:

ـ أنا... لا استطيع... لقد قلت لك، لقد تأخرت والسيد ستافرو لا يعجبه التأخير عن العمل. يؤسفني اختيارك الوقت غير الملائم للاتصال بي...

ـ لم أختر أنا الوقت. لقد حضرت رأساً إلى هنا من المطار. وصلت من الريو منذ أقل من ساعة.

أحست جنيفر بجفاف في فمها... لم تكن تعرف سبب مجيئه... ولا كيف علم بعملها، إلا إذا كان هذا عن طريق غابريال... لكنه وعدها أن لا يتدخل...

ـ نيل أرجوك...

ـ لا... أرجوك أنت.

ومد يده إلى حقيبتها.

ـ أعتقد أن معك مفاتيح هنا؟

ـ لا تفعل هذا... أعني ليس لك الحق...

فرد متجهماً:

ـ ليس لدي الحق؟ أظن أن صاحبة الملك لن توافق معك على هذا.

وجرها إلى جناحها بعد أن وجد المفتاح وفتح الباب فصاحت بغضب:

ـ إذا كنت تظن أنك إن كنت تدفع الإيجار قادر...

وصفق الباب خلفه ثم اتجه إلى غرفة الجلوس الصغيرة الملحقة بغرفة نومها. ووقف وسط الغرفة يسد عليها طريق

الخروج عاقداً ذراعيه:

ـ والآن! قبل أن تبحث أمر استقالتك من عملك... فلنفترض أنك ستخبريني كيف ارتكبت هذه الخدعة الصغيرة؟

أخرج من جيبه المغلف الأبيض الصغير المكتوب بخط رئيسة الدير الصغير الجميل.

وتراجعت ساقا جنيفر وهي تحدق إلى الرسالة... لقد اكتشف الأمر إذاً... يبدو أن كاترينا لم تشبع غليلها إلا بالانتقام منها.

ـ هذا... خطاب من الدير...

ـ صحيح؟ وأظنك تعرفين ما تحتويه الرسالة.

ـ أنا... حسناً... أعرف شيئاً عنه... وأنا لست خجلة مما فعلت. كان الأمر يستحق. فأنا وإن... كنت تحتقرني الآن، سأعيد الكرة ثانية إن اضطررت...

ـ وهل ستفعلين؟

ـ أجل... لقد وعدتني كاترينا بألا تريك الرسالة مطلقاً.

ـ فلندع كاترينا وشأنها الآن. أود أن أعرف كيف استطعت اقناع والدك بكتابة تلك الرسالة.

ـ اوه... حسناً... كنت أكتب له كل رسائله... أترى... لم تكن يداه ثابتتان... وكان يوقع الرسائل فقط.

ـ آه... بدأت أفهم الآن.

ـ كنت أود أن أخبرك... لكنك كنت تكره المسؤولية...

ـ وهل فعلت، هذا؟

ـ أنت تعرف. لو كنت صبياً

وتنهد. فأخفض رأسه ولم تستطع رؤية تعبيراته

ـ حقاً!

ـ لماذا جئت؟ إذا كان من أجل... المال...

ـ أي مال؟

ـ المال الذي تدفعه لإعالتي والآنسة نيوبولت.

أحست بحرارتها ترتفع وهو يتقدم من منتصف الغرفة نحوها... ليقف أمامها قائلاً:

ـ طبعاً... وما غيره؟

ـ من قال لك انني أعمل؟ إذا لم تكن الآنسة، فلا بد أنه غابريال. هل أرسله إلى هنا... ليتجسس عليّ؟

ـ وهل تظنينني قد أفعل شيئاً مماثلاً؟

إنه يتلاعب بأعصابها، دون شك. كما يلاعب القط الفأر. ومهما كانت دواعي مجيئه إلى لندن، فلكاترينا يد فيها. ولا بد أنها واثقة منه كي تتجرأ وتتركه يأتي وحده.

ـ كيف... حال كاترينا؟

فضاقت عيناه:

ـ أظنها بخير. لست أدري. لم أرها منذ أكثر من أسبوع.

حدقت جنيفر إليه مذهولة ثم انهمرت دموعها فاستدارت عنه لكنها أحست بجسمه يقف خلفها مسبباً لها العذاب والبهجة معاً.

ـ جنيفر... جنيفر! لماذا جعلتني أبعدك؟ ألديك فكرة عما مر بي؟ أو بما شعرت عندما قال لي انريكو انك تعملين...

ـ انريكو؟

ـ أجل انريكو... آنستك الخبيثة لم تكتب إليّ شيئاً عن ذلك الخطاب الذي وصل من الدير، ولا عن قرارك بعدم

العودة. بل كتبت إلى انريكو، وهي تعلم أنه يعارضني لأنني أريد أن أتزوجك وإن كنت صغيرة السن.

والتفتت إليه لتصبح بين ذراعيه:

ـ نبل؟ أصحيح ما تقوله؟

ولم يستطع مقاومة الاغراء في مسّ شعرها بشفتيه:

ـ وهل أكذب عليك؟

ـ لكنك قلت... إننا نحتاج إلى وقت.

ـ قلت إنك أنت تحتاجين إلى وقت... ولكن والله أمهلتك ما فيه الكفاية.

لمعت عيناه شوقاً فكره تركها لذا جذبها إلى الأريكة القريبة منه ليضغط على جسدها العطري بجسده القوي فتمتمت جنيفر محتجة:

ـ الآنسة نيوبولت...

فقرك لها أنفها:

ـ لدي ما أقوله لها فيما بعد. لكنني لا أظنها ستدهش لدى رؤيتي.

طرفت عيناها وهي تتذكر كلامه:

ـ هل قلت انني... تصورت أنك لا تعرف شيئاً عن الرسالة من الدير؟

فقال وهو يضمها أكثر:

ـ فلنتحدث عن هذا فيما بعد.

النظرة في عينيه لم تترك أي شك في نفسها لما يقصده، وأدركت بقلب خافق أن عليها كسب الوقت، فرددت السؤال فقال على كره منه:

- سأخبرك أولاً عن كاترينا.

- ماذا عنيت عندما قلت انك لم ترها منذ اسبوع؟ وانك أتيت مباشرة من الريو؟

- اصبري. سأشرح لك. في البداية سأتكلم عن الرسالة... أعتقدتني كاترينا لا أعرف شيئاً عن الرسالة... حسناً تلك كانت كذبة لعينة يا... يا حبيبتي... انريكو هو من يجمع البريد لا كاترينا وليس ذلك من صلاحياتها. فأنا لا أثق بها إطلاقاً في الأمور الخاصة. وبالطبع أعطاني انريكو الرسائل. وكما تذكرين اضطررت للسفر إلى بورتونوفا لإحضار الطبيب لك. أتذكرين عندما نزلت ووجدتني في الردهة؟ كنت قد قرأت الرسالة لتوي ووقفت أفكر فيها، وإذا بي أسمعك تقولين انك راحلة فبانت على ما أعتقد مشاعري وقتذاك.

- اعتقدت يومها أن تصرفك غريب... وكأنك... كأنك كنت تتوقع مني العكس.

فتنهد، ومرر شفتيه على خدها... ثم أردف:

- هذا صحيح. فبعد قراءة الرسالة، كنت لأقطع لساني قبل أن أطلب منك الرحيل!

- نيل!

- ألم تفهمي؟ عندما قرأت رسالتك علمت مدى اليأس الذي كنت تعانين منه ولما ذكرت أنك راحلة... تشتت عقلي.

- ليتك أخبرتني!

- لقد حاولت... أن أخبرك في صبيحة اليوم الذي غادرت فيه، فقد قصدت غرفتك وقرعت بابك فلم تردي.

- لكنني ذلك الصباح استيقظت باكراً جداً. وكنت أتناول الطعام مع طلوع الفجر.

فأغمض عينيه:

- إذن ذلك كان السبب... يا رباه! كم سببت لي من أوقات عصيبة! لو عرفت ما فعلته كاترينا لقتلتها!

- ألم تعرف؟

- وكيف لي أن أعرف؟ هي لن تخبرني طبعاً وأنت منعت الآنسة نيوبولت من الكتابة لي.

- قالت إنها... ستجبرك على الزواج منها... حتى وإن اضطرت للحمل منك...

- اوه يا إلهي! لكي تحمل عليها أن تفعل أكثر من طبخ طعام الرجل وغسل ثيابه... وهذا كل ما تفعله كاترينا لي.

ارتجفت شفتاها وهي ترد:

- لقد قالت...

- لست أهتم بما قالته... لا أنكر أنني عاشرتها مرة. لكنني لا ألزم نفسي كثيراً بهذه الأمور. من الأسهل الذهاب إلى المدينة لو اضطررت.

فاحمر وجهها.

- وهل فعلت هذا... بعد... ليلة...

- بعد ليلة العاصفة؟ يا طفلتي العزيزة... لن أرضي فضولك... لكن إن أسعفتك ذاكرتك. لعلمت أنني كنت قلقاً بشأن أمور أخرى.

- الجاكوار؟ هل نلتم منه؟

- أجل... قتله انريكو في الأسبوع الذي سافرت فيه.

- المسكين!

أحست بالإشفاق حتى وهي تتذكر رعبها منه في تلك

الهوة.

- فلنعد إلى كاترينا... تلقى خطاب الآنسة نيوبولت انريكو. قبل فترة وبما أنه كان يعلم أن غابريال مسافر إلى روما... طلب منه أن يتوقف في لندن ليراك... وعندما أكد له غابريال ما ذكرته الآنسة في خطابها... قرر، ولو ضد إرادته، أن يخبرني، ولا حاجة لأقصّ ما حدث بيني وبين كاترينا... يكفي أن أقول إنها وضبت حقائبها ورحلت.

لم تستطع جنيفر إلا أن تشفق على المرأة.

- اوه... نيل!

- ستعيش، لديها شقيقها ووالدتها لترعاهما. ثم أن أمها ستخرج من المستشفى قريباً... لم تفهم أنني لن أتزوج ثانية... لا تستنتجي استنتاجاً خاطئاً فقراري هذا كان قبل أن ألتقيك.

فشبكت ذراعيها خلف عنقه:

- ومتى قررت المجيء إلى هنا؟

- ما أن عرفت... ولكن الأمر لم يكن سهلاً... فلدي مزرعة يجب أن أديرها... أترين المشاكل التي تسببينها لي! أقفز كالأبله على أول طائرة... آخذ سيارة أجرة إلى ساحة مونتساي، أرمي حقائبي عند الآنسة بيرلي ثم أواجه امرأة سليطة اللسان، نارية الطبع!

وساد صمت مرضٍ... تبعه همسها الأجش:

- ذلك اليوم... في الوادي الصخري... قلت إنك لا تستطيع خيانة الثقة التي وضعها والدي فيك... لكنك كنت تشك في أنه كتب لك. فلماذا لم تتحداني؟

- لأنني أردتك أن تخبريني. ثم أنني ما زلت أحس بأنني

مدين لوالدك كثيراً.

- ليس بسبب...

- زواجي؟ اوه... أنت لا تعرفين إلا القليل عن الرجال! أتظنين حقاً أنني قد أربط نفسي بامرأة لأنني مدين لأبيها؟

- سأكون زوجة صالحة لك. أعلم أنني لست طاهية قديرة... لكنني كفوءة في التنظيف... ومستعدة للتعلم.

- أعلم... لكن في الوقت الحاضر ستذهب معنا الآنسة نيوبولت.

- الآنسة نيوبولت؟

- طبعاً... أتظنينني سأتخلى عنها؟

- وماذا عن انريكو؟ هل سيرضى بي؟

- طالما ألزم انريكو بما لا مهرب منه. ويجب أن تتغاضي عن عفويته... لقد عشنا زمناً طويلاً معاً.

- يقول إنه يعرف والدي؟

- صحيح... لقد عمل معي في المكسيك... ولأنه يستطيع ترويض الخيول عرضت عليه العمل معي. لقد استثمرت كل بنس أملكه في المزرعة والشكر لوالدك.

- أتعني أنك دفعت ثمنها بما كسبته مع أبي؟

- أجل.

- اوه لقد ظننته من مصدر آخر. ما أشد أسفي... لم أكن أعلم...

- ذلك المال خسرته في المضاربات في أميركا. أما المال الآخر فاشتريت به المزرعة وقتذاك رافقني انريكو وابنه الذي كان يومها طفلاً.

- ولم يزل طفلاً... نيل كيف فكرت يوماً في أنني...

ـ الرجل الذي يحب يفكر بجنون.

التصقت به أكثر:

ـ لا استطيع الانتظار حتى أعود إلى المزرعة... لقد كرهت لندن... وكرهت بعدي عنك... متى نستطيع الرحيل؟

ـ حالاً... فلن أتركك ثانية.

فتنهدت:

ـ أتعرف ماذا أريد أن أفعل. أريد أن أرافقك في رحلة لتجميع الخيل.

ـ بعد أن يزول الثلج؟ اوه أجل... لدينا القليل من الثلج... ليس بالكثير... وماذا تريدين أن تفعلي؟ تبحثين عن فرسك البنية التي هربت منك؟ لا حاجة لهذا، أعدتها سالمة.

ـ صحيح؟

فهز رأسه وابتسامة خبيثة على شفتيه:

ـ ربما يكون تعبير سالمة تعبير مخادع... إنها حامل... وسأدعك تختارين اسم ما ستلده. أترغبين في هذا؟

فصاحت جنيفر بسعادة:

ـ الحصان الأسود! عند شلالي... يوم أنقذتني!

عندما دخلت عليهما الآنسة نيوبولت... لترى إذا كان كل شيء على ما يرام... اضطرت للانسحاب على أطراف اصابعها لئلا تزعجهما.